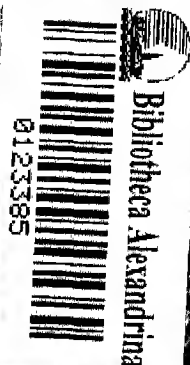
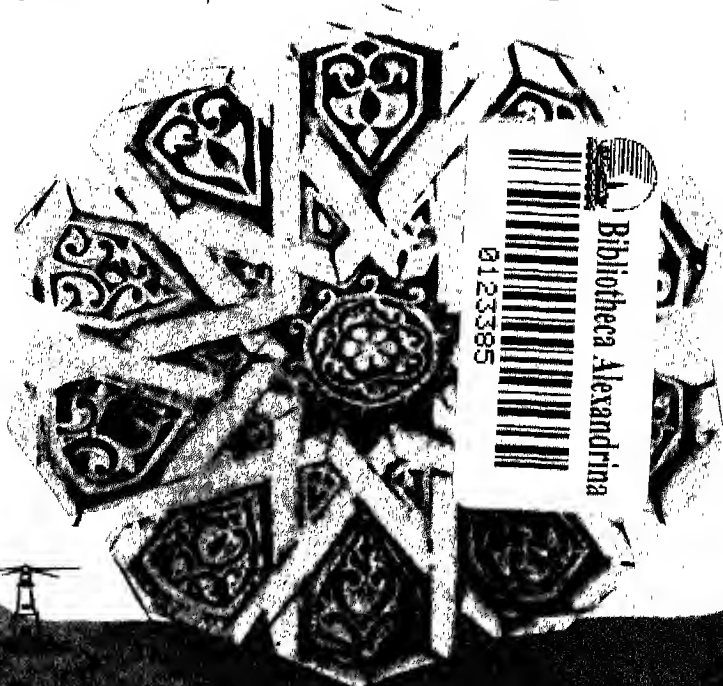


صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ

٢

أَمِينٌ دُوَيْدَار

المهجرة إلى المدينة المنورة



صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ
(٢)

الهِجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذى ذلت له الرقاب، وسجد له ما فى
السّموات والأرض طوعًا وكرهًا، والصلاة والسلام على النبي
الرسول الأكرم، والداعى إلى الخير الأعظم.
وبعد :

فلإن الهجرة ذكرى حية فى نفس كل مؤمن، وهى جديرة
بالإجلال والتعظيم، ففيها كمال الإيمان والتضحية، والبذل
والفداء، وعن طريقها تحققت الحرية للدعوة والداعين.

وهجرة الرسول ﷺ تتوالى صورها على الزمن، وتتجدد
حاملة العبرة والعظة فى كل المواقف، والحديث عن الهجرة هو
الحديث عن الصراع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، ومن
هنا كان الحديث عنها عبارة عن سلسلة من المواقف التى ثبت
فيها أهل الحق، وضربت الذلة والمسكنة على أهل الباطل.

ولقد رغب الله سبحانه وتعالى فى الهجرة، ووعد عليها

الأجر العظيم فقال عز من قائل : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ
بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوِّنَنَّاهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل الآية ٤١].

ولقد ظل الرسول ﷺ ثلاثة عشر عامًا في مكة في كفاح
مرير، والدعوة ما زالت في المهد، وكان جو مكة فاسدًا غير
قابل لزرع بذور الدعوة في نفوس الذين حاربوها منذ نشأتها،
ومن هنا لم يكن هناك مفر من البحث عن أرض طيبة لغرس
هذا الدين الجديد، وهذه التعاليم الربانية، فكانت يثرب هي
الأرض الموعودة التي كتب الله لهذه الدعوة أن تنطلق منها
الشرارة الأولى لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وأطلق
عليها بعد الهجرة «المدينة المنورة».

وقد أظهرت الهجرة النبوية بطولات نادرة ما زال رنين هذه
البطولات يقرع الأذان، وسيبقى ما بقى الزمان، وستحدثك هذه
الصور التي بين يديك عن هذه البطولات في أبهى صورة وأجمل
بيان، ومنها وبعدها دخل الناس في دين الله أفواجًا وانتصر دين
الله وتحطم الكفر وأهله حتى جاء أمر الله تعالى بقوله : ﴿الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا﴾ [المائدة الآية ٣].

[دار المعارف]

عام الحزن

انتشار الدعوة في قبائل العرب

ذكر ابن سعد أن مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب دامت ثلاث سنين، وأن خروجهم من الشعب كان في السنة العاشرة؛ وذكر غيره أنها دامت سنتين، وأن خروجهم كان في السنة التاسعة. ومهما يكن من أمر هذه الفترة فإنها كانت فترة عسيرة شاقة، لاقى فيها رسول الله ﷺ وقومه من الصعاب ما لا يوصف، وتوقفت فيها دعوة الإسلام أو كادت؛ فقد كان المحصورون في الشعب لا يستطيعون الخروج منه إلا في مواسم الحج، وكان رسول الله ﷺ إذا حضر الموسم وتعرض للقبائل يدعوها إلى الإسلام، جعلت قريش تكذبه وتحذر الناس منه، حتى لا يجتمعوا عليه ولا يستمعوا لقوله.

ولكن هذه الفترة على رغم ما كان فيها من قسوة ومشقة، كانت منبعاً من منابع الخير للدعوة؛ فإن هذا الظلم الذي صبته قريش على رسول الله وقومه، قد عطف قلوب العرب على بني هاشم وبني المطلب، ولفت أنظارهم إلى هذه الدعوة التي يلاق

محمد في سبيلها كل هذا العناء، ثم لا يتخلى عنها ولا يتركها. وقد زاد العرب عطفًا على قوم رسول الله واهتمامًا بدعوته، أنهم صبروا للمحنة صبر الكرام، واحتملوا كل ما عانوا خلالها من عنت وظلم، دون أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ، أو يتزحزحوا عن حمايته قيد شعرة. لذلك لم يكذبك الحصار، ويخرج رسول الله وقومه من الشعب، حتى أقبل على الإسلام كثير من الناس فأسلموا، وحتى ذاعت أنباء الدعوة بين القبائل، وتردد صداها في بلاد العرب.

وكأنما شعرت قريش بشيء من الخجل من سوء ما فعلت ببني هاشم وبني المطلب، فاستخذت وخفت من غلوائها شيئًا، وسكتت عن اضطهاد الرسول وصحبه فترة من الزمن؛ فكانت هذه الفترة أهدأ فترة قضها المسلمون، منذ أخذت قريش في اضطهادهم وفتنتهم. وليس معنى هذا أن السلام قد ساد بينهم وبين قريش، ولكنها كانت هدنة مؤقتة، جعل كل من الفريقين فيها ينظر ما عدوه فاعل.

مرض أبي طالب

ومرض أبو طالب خلال هذه الفترة وثقل^(١)؛ فخشيت قريش أن يموت أبو طالب، والأمر بينها وبين محمد على ما هو

(١) ثقل : شارب الموت.

عليه من العداوة، وأرادت أن تأخذ حذرَها وحيطتها، وأن تحسم الأمر قبل أن يتفاقم، وأن تتق ما عسى أن يكون إذا قويت شوكة المسلمين واشتد ساعدُهم؛ فذهبوا إلى أبي طالب ليفصل بينهم وبين ابن أخيه.

روى ابن إسحاق : « أن أبا طالب لما اشتكى وثقل، قالت قريش بعضها لبعض : « إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطيه منا، فإننا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا ».. ومشي رجال من أشرافهم فقالوا : « يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حَضَرَكَ ما ترى وتخوفنا عليك. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه، فخذ لنا منه وخذ له منا، ليكف عنا ولنكف عنه، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه ».. فبعث أبو طالب إليه فجاء، فقال له : « يا ابن أخى، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك، ليعطوك وليأخذوا منك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أعم، كلمة واحدة تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم ». فقال أبو جهل : « نعم - وأبيك - وعشر كلمات ! » قال : « تقولون : لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه ». فصفقوا بأيديهم وقالوا : « يا محمد، أترى أن تجعل الآلهة إلهًا

واحدًا؟ إن أمرك لعجب!..» ثم قال بعضهم لبعض: «إنه - والله - ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه».. ثم تفرقوا.

مصيبتان عظيمتان

وأراد الله أن تنقضي وشيكًا هذه الهدنة؛ فلم يلبث أبو طالب أن مات، ولم تلبث خديجة أن ماتت على أثره، وأصبح رسول الله ﷺ أمام عدوه وجهاً لوجه وتحققت بذلك لقريش أمنية طالما تمنتها وتطلعت إليها: هي أن تنفرد برسول الله وأن تبلغ من أذاه ما يشقى غليلها، ويُرْضَى نزعة الحقد الكمين في صدورها. والله في ذلك حكمة هو مقدرها، وأمر هو بالغه.

لقد كان أبو طالب حصناً حصيناً يحوط رسول الله ﷺ من جميع نواحيه، ويدفع عنه كثيرًا من الأذى والضرر. وكانت خديجة سكّته الذي يأوى إليه، ويستجير به كلما كَرِهَ الهم، وضاق صدره بما يلقي من عناد القوم، فيجد عندها الفرج والراحة والعزاء. فلما مات أبو طالب وخديجة، واجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان عظيمتان: فَقَدَ النصيرَ وفَقَدَ الحجيرَ فاشتد به

الحزن وبلغ منه كل مبلغ، حتى لقد سمي هذا العام «عام الحزن».

فقد النصير بموت أبي طالب

نعم، كان موت أبي طالب مصيبة عظيمة؛ فقد انكشف بموته ظهر محمد للقوم، ووجدت قريش منفذًا إليه فنالت منه ما لم تكن تنال في حياة أبي طالب، وتعرض له سفهاؤها يؤذونه بالسنتهم وأيديهم؛ حتى لقد تحركت الحمية له في صدر عدوه أبي لهب، فهم أن ينهض لحيايته كما كان ينهض أبو طالب؛ فجاءه يومًا فقال له: «يا محمد امضي لما أردت، وما كنت صانعًا إذ كان أبو طالب حيًّا فاصنعه؛ فلا - واللات - لا يصل إليك شيء حتى أموت...؟! ولكن شياطين قريش جعلوا يحتالون على أبي لهب، ويدسُّون بينه وبين رسول الله ﷺ، حتى تخلى عن نصرته، وعدل عما كان قد عزم عليه من حمايته. وحينذاك خلا الجو لقريش، فاشتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغوا من أذاه ما لم يكونوا يبلغون قبل موت أبي طالب.

وفقد الأنيس بموت خديجة

وكذلك كان موت خديجة مصيبة أخرى؛ فقد تركت في

حياة رسول الله ﷺ فراغًا هائلًا، أحس به إحساسًا قويًا، وحزن بسببه حزنًا شديدًا، وغلب عليه الوجد حتى خشي عليه.. لقد غدا البيت بموتها خلاءً مُوحشًا لا أنيس به ولا سмир..! نعم، كان في البيت ابتاه فاطمة وأم كلثوم، وكان فيه مولاه زيد بن حارثة، وكان فيه حاضنته أم أيمن، وربما كان فيه عدا أولئك بعض الأهل والعشيرة، وبعض الخدم والأتباع. ولكن ماذا عسى أن يغني هؤلاء عن رجل قد حمل على كاهله أثقل مهمة يستطيع أن ينهض بها بشر؟ وماذا عسى أن يغني هؤلاء عن رجل أحاط به الأعداء من جميع نواحيه، فهم يُنوشونه^(١) من كل جانب، ويريدون أن يحطموه قبل أن يؤدي هذه المهمة الثقيلة، ويبلغ هذه الرسالة الجليلة..؟ ماذا عسى أن تغني عنه فتاتان في سن الغضارة^(٢)، لم تفارق صغراهما بعد سذاجة الطفولة، ولم تغادر كبراهما بعد غرارة الشباب؟ ماذا عسى أن يغني عنه خادم أو خادمة أو عدد من الخدم والأتباع..؟ لقد يكون هؤلاء جميعًا حملًا ثقیلاً على كاهله، يزيد عبئه عبثًا وهمه همًا..

أين منه ذلك القلب الكبير، الذي كان يشكر إليه

(١) ينوشونه : يتناولونه.

(٢) سن الغضارة : حداثة السن وقلة التجربة.

فَيْشْكِيهِ^(١)، ويركن إليه فيواسيه؟ أين منه ذلك العقل الحصيف،
الذى كان له وزير صدق في الشدة والرخاء، وعوناً يستعين به
على البأساء والضراء...؟ أين منه تلك النفس المخلصة، التي
حملت عنه أثقاله، وشاركته آلامه وآماله...؟ أين منه خديجة
تلك الزوج الوفية، التي آمنت به حين كفر الناس، وصدقته
حين كذبه الناس، وأغنته بمالها، وأزرت به برأيها وعزيمتها...؟ أين
منه ذلك الجو الأنيس الذى كان يغمره بالحب والحنان، فيمسح
عنه أشجانه، ويزيل عنه أدرانته، ويمده بالعزم والقوة، ويعينه
على مجالدة هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون...؟

لقد ذهب هذا كله بذهاب أبي طالب وخديجة، وأصبح
الآن بحيث لا يجد له في الخارج نصيراً، ولا في الداخل أنيساً؛
فكان حرّاً أن يشتد به الحزن، وأن تستبد به الوحدة، وأن
يُقلَّ الخروج ويلازم البيت حتى يجعل الله له من همه فرجاً،
ومن ضيقه مخرجاً.

اجتراء قريش على النبي ﷺ

قال ابن سعد في الطبقات: لما توفي أبو طالب وخديجة
بنت خويلد - وكان بينهما شهر وخمسة أيام - اجتمعت على

(١) يشكيه: يزيل عنه آلام الشكوى.

رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به.

وقال صاحب السيرة النبوية والآثار الحمديّة: «لما مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي، صلى الله عليه وسلم، ونالت منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب. فدخل، صلى الله عليه وسلم، يوماً بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي، ورسول الله يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أبساك!..». وكان، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».. ولما رأى قريشاً تهجموا عليه قال: «يا عم، ما أسرع ما وجدت فَقْدك!!»

يضعون السلا عليه وهو يصلي

وروى مسلم عن ابن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرت جزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا^(١) جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشق القوم فأخذه، فلما سجد النبي وضعه بين كتفيه (قال):

(١) السلا: غلاف الجنين في بطن أمه وهو المسمى بالخلاص، والجزور الناقة.

فاستضحكوا وجعل يميل بعضهم على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كان لي مَنَعَةٌ طرحته عن ظهر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه.. حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهي جُوَيْرِيَّة^(١) - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتتهم. فلما قضى النبي صلاته، رفع رأسه ثم دعا عليهم - وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً - ثم قال: «اللهم عليك بقريش!» - ثلاث مرات - فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عُقْبَةَ، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْط» - وذكر السابع ولم أحفظه - فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيت الذين سَمِيَ صَرَعَى^(٢) يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القَلْبِيبِ^(٣) قليب بدر.

ويُخَنَّقُونَهُ وهو قائم في المسجد

وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه حضر قريشاً يوماً وقد اجتمع أشرافهم في الحجر، فذكروا رسول

(١) جُوَيْرِيَّة: فتاة صغيرة.

(٢) صَرَعَى: قتل.

(٣) القَلْبِيب: البئر القديمة المهجورة.

الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط! سفّه أحلامنا، وشتم آبائنا وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا.. لقد صبرنا على أمر عظيم! فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن.. ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما مر بهم غَمَزُوهُ ببعض القول، فعُرف ذلك في وجه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فلما مر بهم الثانية غَمَزُوهُ بمثلها، فعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغَمَزُوهُ بمثلها. فوقف ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح!» (قال): فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجلٌ إلا كأنما على رأسه طائر واقع. حتى إن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك، ليرفؤه^(١) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.. (قال): فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه! فبيناهم، في ذلك طلع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به

(١) يرفؤه: يتملقه ويلاطفه.

يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا؟ - لما كان يقول من عيب أهلتهم ودينهم - فيقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «نعم، أنا الذى أقول ذلك» (قال) : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بجمع ردائه؛ فقام أبو بكر - رضى الله عنه - دونه، وهو يبكى ويقول : ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟﴾... وذكر ابن إسحاق : أن أبا بكر رجع يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جبدوه بلحيته، وكان رجلاً كثير الشعر.

وروى ابن كثير عن ابن إسحاق : أن بعض أعداء النبي ﷺ من جيرانه، كان يضع رَحِمَ الشاة في بُرْمته^(١) إذا نُصبت له، فكانوا إذا طرحوا شيئاً من ذلك يحمله على عود، ثم يقف به على بابهِ ثم يقول : «يا بنى عبد مناف، أى جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

صمود النبي لإيذاء قريش

لقد لقي رسول الله ﷺ من أذى قريش ما أعتته وشق عليه، وكان جديراً أن يُلین قناتَه، وأن يزحزحه - ولو شيئاً قليلاً - عن ذلك الموقف الصُّلب الذى وقفه منها. كما لقي من إغرائها ما كان جديراً أن يعدل به إلى مُداهنتها والميل معها؛

(١) البرمة : القدر من الفخار يطبخ فيها.

وقد عرضت عليه قریش كل ما یرضى مطامع الطامعين، وترضته بما ليس وراءه زیادةٌ لمستزید. فلو أنه كان بشراً غیر مؤید بروح الله، لما استطاع أن یحتمل أذاهم ولا أن یقاوم إغراءهم، ولکان من المحتمل أن یميل إلى ناحيتهم بعض الميل، وأن یرضاهم ولو بعض الترضی. ولكنه رسول الله والله من ورائه یؤیده بقوته، وُثِّبَتْه بثبیته، وبعینه على احتمال ما ینالونه به من الأذى، وعلى مقاومة ما یخدعونه به من مُغْریات.

لقد کان اضطهادهم - حقاً - شدید الوطأة، وکان عُروضهم - حقاً - شديدة الإغراء.. ولولا أن الله ثبَّت قلب نبيه ﷺ، وأیده بحوله وقوته، لزعزعه الإیذاء الذى تعرض له، ولهره الإغراء الذى عرض علیه.. وهذه إحدى المَنِّ التى مَنَّ الله بها على رسوله إذ یقول له: ﴿وإن کادوا لیَفْتِنُوكَ عن الذى أوحینا إلیک لِتَفْتَرِیَ عَلَینَا غَیْرَهُ، وَإِذَا لَا تُحْذُوكَ خَلِیلاً * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَیْهِمْ شَيْئاً قَلِیلاً * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَیَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَینَا نَصِيراً *﴾^(١).

(١) سورة الإسراء آیات ٧٣ - ٧٥.

مواقف التحدى

النبي لا يتزحزح عن موقفه

أخفقت كل المحاولات التي أرادت قريش أن تثني بها رسول الله ﷺ عن دعوته، أو أن تقف تيارها الجارف عن السير في طريقه. وكان الموقف الأخير الذى وقفه. منها رسول الله ﷺ قبيل وفاة عمه أبى طالب، دليلا على أنه مصمم على الوصول بهذه الدعوة إلى غايتها، مهما كلفه ذلك. وكانت الكلمة التي ألقاها إلى عمه أبى طالب يوم أخرجته قريش، وخيرته بين أن يكف عنها ابن أخيه أو تكون الحرب بينها وبينه حتى يهلك أحد الفريقين.. كانت هذه الكلمة هي الدستور الذى وضع به رسول الله ﷺ لنفسه خطة السير في هذه الدعوة، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. لقد قال له عمه يومذاك: «يا ابن أخى، أبقِ على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق». فكان جوابه على ذلك: «ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يمينى، والقمر في يسارى، على أن أترك هذا الأمر،

ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه». ولم يكن حينذاك كثير الأنصار، ولم تكن دعوته قد استفاض أمرها وانتشر خبرها كما هي اليوم ومع ذلك صمم على أن يسير بها إلى النهاية؛ فكانت هذه الكلمة هي الدستور الذي وضعه لنفسه فلم يجد عنه قيد شعرة.

لقد بذلت قرش في هذا السبيل كل ما تستطيع من جهد، وتوسلت إليه بكل ما تستطيع من حيلة، واستباح ما يجوز وما لا يجوز في عرف المروءة، وأتت من الأعمال ما قد لا يتصوره العقل، وثابتت وصابت في ذلك السنين الطوال. ولكنها بعد كل ذلك أدركت أن عمداً لن ترهبه القوة مهما بلغت، ولن يخدعه الإغراء مهما عظم، وأن كل محاولة لتحويله عن طريق هذه الدعوة لا تُجدي ولا تفيد؛ فأرادت أن تأتيه من طريق التعجيز والتحدى، لعلها بذلك تستطيع أن تثبّط همته، أو تكشف عجزه للناس فينصرفوا عنه وعن دعوته. فليطالبوه إذن بالمعجزات، وليتحدّوه أن يقدم برهاناً على صدق نبوته كما فعل غيره من الرسل والأنبياء. لقد أتى موسى قومه بالمعجزات وأتى عيسى قومه بالمعجزات، وأتى كل رسول قومه بمعجزة دلت على صدقه فيما يدعيه عن ربه؛ فإن كان محمد رسولا حياً ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾، فإن عجز

عن تقديم هذا الدليل فقد انكشف أمره للناس، وتبين لهم أنه دجال يفترى على الله الكذب.

قريش تتحدى بطلب المعجزات

وكذلك اجتمع الملأ من قريش يدبرون ويقدرّون، حتى خيل إليهم أنهم قد أحكموا الخطة ودبروا الأمر.. ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يبنّونه بأن أشرف قومه في انتظاره، يريدون أن يجتمعوا به ليكلّموه. فأسرع إليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفي نفسه أمل قوى بأن الله قد هداهم إلى الإيمان، وأنهم عدلوا بأنفسهم عن خطة العناد التي انتهجوها، بعد أن تبين لهم وجه الحق فيما جاءهم به. فلما أن اجتمع بهم أخذوا يُلينون له القول، ويستدرّجونه بالمداينة والملاطفة، ويعيدونه الوعود ويمنّونه الأمان، ويعاتبونه فيما أدخله على قومه من شقاق وما جاءهم به من خلاف، ويعرضون عليه كل ترضية يريدونها ليرجع إلى دينهم، ويترك ما جاءهم به من هذا الدين الذي سفه به أحلامهم، وكفر آبائهم، وعاب آلهتهم. ثم عادوا يلوّحون له بما عرضوا عليه من قبل، من الملك والسلطان، والمال والثروة، والطب والعلاج، وما إلى ذلك من وسائل الإغراء، التي تُستمال بها النفوس، وتُسْتَهْوَى بها القلوب، وتُشْتَرَى بها الضمائر.

فلما رأوا أنه لا يقبل منهم شيئاً، وأنه مصر على السير في طريقه، انقلبوا عليه يتحدّونه.. يطالبونه بالمعجزات، ويستعجلونه بالعذاب الذي توعدهم به إن كان رسولا.

روى ابن إسحاق عن سعيد بن جُبَيْر وعن عِكْرمة مولى عبد الله بن عباس، عن ابن عباس رضى الله عنه وعن أبيه : «أن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه، وخاصموه حتى تُعذّروا فيه^(١). فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلّموك، فأتتهم. فجاءهم، صلى الله عليه وسلم، سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بدء - وكان عليهم حريصا يحبّ رشدهم ويَعِزُّ عليه عَنَتُهُم - حتى جلس إليهم، فقالوا له : «يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا - والله - ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك.. لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسبّيت الآلهة، وسفّحت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا وجهته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت إنما تطلب به الشرف

(١) تعذّروا فيه : جادلوه حتى تقيموا عليه الحجة وتبينوا عذرهم للناس في معاداته.

فيما، فنحن نسودك علينا؛ وإن كنت تريد به مُلْكًا، مَلَكْنَاكَ علينا؛ وإن كان هذا الذي يَأْتِيكَ رُئْيَا^(١) تراه قد غلب عليك - فربما كان ذلك - بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك، حتى نُبْرِثَكَ منه أو نُعْذَرَ فَيْكَ».

فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما بي ما تقولون.. ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالاتي ربي ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة؛ وإن تردوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم» - أو كما قال، صلى الله عليه وسلم.

قالوا: «يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا. فسَلَّ ريك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليُسِّطْ لنا بلادنا، وليفجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا؛ وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب

(١) الرؤى: كانوا يسمون التابع من الجن رؤيًا.

فإنه كان شيخَ صِدْقٍ، فنسأله عما تقول، أحمق هو أم باطل.
فإن صدقوك وصنعت ما سألتك، صدقناك وعرفنا منزلتك من
الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول».

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «ما بهذا بعثت
إليكم؛ إنما جئكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغتكم
ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا
والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله
بيني وبينكم».

قالوا: «فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك: سلّ ريك أن
يبعث معك مَلَكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك. وسله
فليجعل لك جَنَانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة، يغنيك بها
عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتبس المعاش
كما نلتمسه. حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ريك، إن كنت
رسولا كما تزعم».

فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما أنا
بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا؛ وما بعثت إليكم بهذا،
ولكن الله بعثنى بشيرًا ونذيرًا - أو كما قال - فإن تقبلوا
ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ
أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا : « فأسقط السماء علينا كِسْفًا، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل » فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل ».

قالوا : « يا محمد، أفما علم ربك أننا سنجلس معك، ونسألك عما سألتك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟ .. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليامة يقال له : « الرحمن »، وإننا - والله - لا نؤمن بالرحمن أبدًا.. فقد أعذَرنا إليك يا محمد، وإننا - والله - لا نترك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تهلكنا..! »

فلما قالوا ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة - وهو ابن عمته - فقال له : « يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل منهم. ثم سألوكم لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل. ثم سألوكم أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله، فلم تفعل. ثم سألوكم أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أؤمن بك

أبدًا، حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي ومعه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول.. وإيَّم الله لو فعلت ذلك، ما ظننت أني أصدقك...!»

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رسول الله إلى أهله حزينًا آسفًا، لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دعوته، ولما رأى من مبادئهم إياه.

استخدام القوة

فلما قام عنهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال أبو جهل: «يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا. وإن أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني. فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم». قالوا: «والله لا نسلمك لشيء أبدًا، فامضي لما تريد».

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصَف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما كان يغدو. وكان، صلى الله عليه وسلم، بمكة وقبيلته إلى

الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. وقام رسول الله، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديةهم، ينتظرون ما أبو جهل فاعل.

فلما سجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا مُتَتَقًا لونه، مرعوبًا قد يَبَسَتْ يدها على حَجَرِهِ حتى قذف الحجر من يده. وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: «مالك يا أبا الحكم؟» قال: «قت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة؛ فلما دنوت منه عرض لى دونه فحلَّ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته^(١) ولا أنيابه لفحل قط؛ فهم بي يريد أن يأكلني...»

قال ابن إسحاق: فذكر لى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «ذلك جبريل عليه السلام. لو دنا لأخذه».

الرسول يحزن لعناد قريش

وكان رسول الله ﷺ يعلم علم اليقين أن الله يرعاه ويحوطه ويعصمه من الناس، وأن قريشًا مهما طغت وبغت لا تستطيع

(١) القصرة: أصل العنق. وهو يعنى هنا ضخامة رقبته وطولها.

أن تنال منه منالا، فكان يبلغهم رسالات ربه دون أن يخشى بأس أحد منهم. ولكن صدره كان يضيق بما يلقى من تكذيبهم، وبما يجد من صدودهم وعنادهم، وتذهب نفسه حَسرات عليهم كلما رآهم يقفون موقف العناد من دعوة الحق، وهم أهله الأذنون، وعشيرته الأقربون، وأولى الناس به، وأحقهم أن ينتفعوا بما جاءهم به من الخير، وأجدرهم أن يصدقوه فيما يبلغ عن ربه، وهو الصادق الذي لم يجربوا عليه كذبا قط، والأمين الذي لم يألهم نصحا ولم يُضمر لهم كيذا. وكان يشق عليه أن يتحداه أهله وعشيرته هذا التحدى، وأن يتهموه بالجنون والسحر والكهانة، وقد جاءهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأن يكذبوه فيما جاء به من الحق الواضح والآيات البينات.

وكم تمنى لو أن الله هداهم إلى الإيمان فآمنوا ودخلوا في رحمة الله مع الداخلين، وكم تمنى لو أن الله أجابهم إلى ما يطلبون من المعجزات، عسى أن يكون ذلك سببا في هدايتهم. ولكن الله العليم بما كان وما يكون، قد علم أنهم ﴿لا يؤمنون﴾ ولو جاءتهم كُلُّ آية ﴿كان﴾ سبباً، سبباً، يعلم ما يجد رسوله بسبب ذلك من الحزن والهم، وما يشعر به من الضيق والألم؛ فكان يخفف عنه ويواسيه بما يُلقى في نفسه من أسباب السكينة،

وبما يقص عليه من أنباء الذين سبقوه من الرسل والأنبياء، وما كان من صبرهم على ما كانوا يلاقون من التكذيب والأذى حتى أتاها نصر الله؛ ويحثه على أن يتأسى بهم، فيصبر كما صبروا، ويتقرب النصر من الله كما ترقبوا، ويؤكد له أن نصر الله قريب، وأن وعد الله حق، وأن العاقبة للمتقوى.

ربه يخفف عنه ويشبته

وقد أنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك آيات كثيرة: منها ما يشتمل على أنباء الأمم السابقة ومواقفهم من الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، وما كان من نصر الله للمؤمنين وخذلانه للكافرين. ومنها ما يكشف عن سنن الله في الكون ونواميسه في الوجود، وأنها سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول معها تغير الزمان والمكان، وأن من هذه السنن أن يكون في الناس كافر ومؤمن، وأن يكون المحرمون أعداء المرسلين، وأن يكذب الرسل ويُؤذوا في كل أمة حتى يأتيهم النصر من عند الله، وأنه ما أرسل الله من رسول ولا نبي إلا نهي أن يهذى الله قومه فيؤمنوا به جميعاً، ولكن الشيطان يقف في طريق هذه الأمانة، ليصد الناس عن سبيل الله؛ فينخدع بتغريه من حقت عليهم الضلالة من مرضى القلوب وقساتها، ولا يخلص الإيمان إلا إلى قلوب الذين أنار

الله بصائرهم بنور المعرفة، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ^(١).

وكان الهدف الذى ترمى إليه هذه الآيات هو تأييد الرسول ﷺ وتثبيته، حتى يهدأ خاطره ويطمئن قلبه. وقد تعددت هذه الآيات وتنوعت، وسلكت إلى هذه الغاية كل مسلك؛ فكان منها ما يحمل معنى التعزية، ومنها ما يحمل معنى العتاب، ومنها ما يحمل معنى التحذير من اليأس، ومنها ما يحمل معنى التنبيه إلى سنن الله فى الكون، ومنها ما يحمل معنى الحث على التأسي بمن سبق من الرسل، ومنها ما يحمل معنى التشجيع، ومنها ما يحمل معنى التأكيد بأن هؤلاء لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات والمعجزات.

وقد جمعت الآيات الأربع التالية ما لم يجمع غيرها من هذه الأغراض: فقد عزى الله فيها رسوله، وعاتبه، وحذره، ووأساه، وشجعه، ونبهه إلى سننه فى الكون، ثم أياسه من إيمان

(١) هذا الغرض - فيما أرى - هو ما رمت إليه الآيات الكريمة من قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم﴾ * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنه للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴿آيات ٥٢ - ٥٤.

هؤلاء المعاندين من قومه؛ وذلك إذ يقول سبحانه في سورة الأنعام :

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ * ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كِبُرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَعْتَنُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ^(١).

وقد أيقن رسول الله ألا خير في هؤلاء المعاندين، ولا أمل في إيمانهم، وأن الخير قد يكون في التحول عنهم، والاتجاه إلى غيرهم من الناس؛ ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام الآيات ٣٣ - ٣٦.

(٢) سورة المائدة الآية ٥٢.

الخروج إلى الطائف

يُثَسُّ النَّبِيُّ مِنْ قَرِيْشٍ

أيقن رسول الله ﷺ أن الملأ من قريش سيظلون فيما هم فيه من عناد وكفر، وأنهم لن يؤمنوا حتى يأتيهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين؛ فتولى عنهم وانتظر قضاء الله فيهم، وعزم على أن يتوجه بدعوته إلى غيرهم. وكانت قبيلة «ثقيف» بالطائف أول من فكر رسول الله ﷺ في دعوتهم إلى الإسلام بعد قريش، وكانت له بثقيف صلات من الرِّحْم تدعوه إلى أن يتوجه إليهم بدعوته، فقد استُرْضع، صلى الله عليه وسلم، في بادية بنى سعد؛ وبادية بنى سعد جزء من بادية الطائف، فأهل الطائف من هذه الناحية يُعتبرون أحوال رسول الله ﷺ من الرضاغة، فهم أقربُ القبائل رَحْمًا إليه بعد قريش. وقد أشاد بهذه الصلة خطيبهم يوم حُنين. إذ جعل يستعطف النبي على أسارى قومه، ويذكره بهذه الرحم التي تجمع بينهم وبينه، ويقول فيما يقول: «... يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر من كان يكفُّك من عماتك وخالاتك وحواضنك. وقد حضنَّاك في

حجورنا، وأرضعناك بُشْدِيْنَا.. ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك».. إلى آخر ما قال في خطبته تلك، مما أثار في نفس الرسول عاطفة الرحمة لهؤلاء الأهل والعشيرة، فرد عليهم كل ما أخذ منهم، وجعل يستعطف الناس لهم حتى أرضاهم.

فاتجه نحو ثقيف

كان من الطبيعي إذن أن يتجه رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرّحم، ليعرض عليهم دين الحق، وليطلب النصر والمنعة فيهم، حتى يبلغ رسالة ربه، بعد أن تنكرت له قريش، ووقفت منه موقف العناد والصد عن سبيل الله. وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم؛ فقد خرج إلى الطائف في شوال من السنة العاشرة يلتمس النصر والمنعة عند ثقيف. والشُّقَّة بين مكة والطائف ليست شقّة سهلة؛ فهي مسافة تزيد على مائة وعشرين ميلاً، يقطعها الراكب في نحو أربعة أيام، بين جبال وعرّة، ووهاد مقفرة. وقد أثر رسول الله ﷺ أن يقطع هذه الشقّة ماشياً، لأنه - فيما يُظن - قد خرج إلى هذا القصد خُفية، حتى لا تعلم قريش بوجهه الذي يريده. ولعله كان يقدر عواقب الإخفاق لو أخفق، حتى لا تشمت به قريش وتشتد في طغيانها عليه. وأكثر الرواة على أنه لم يكن في هذه الرحلة منفرداً، وأن مولاه زيد بن حارثة كان في صحبته.

ثقيف تحرص على دينها

وكانت الطائف في ذلك الحين مقرَّ عبادة «اللات». واللات صنم كانت تعبدته ثقيف وتعظمه، وتحتفل به احتفال قريش بأصنامها، وقد بنت له بيتاً وجعلت له سَدَنَةً وكسوة؛ وكانوا يسرون إلى ذلك البيت، ويضاهثون به الكعبة، ويحرمون واديه. وكانت قريش وجميع العرب يعظمون «اللات»، كما كانوا يعظمون «هبل» أعظم أصنام الكعبة.

وكان بين ثقيف وقريش صلوات من المودة والمنفعة متبادلة منذ القدم، وكانت ثقيف تحرص على أن تظل هذه الصلوات قائمة بينها وبين قريش، وكانت ثقيف قد سمعت بدعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلمت بما كان بينه وبين قريش من خلاف ومناوأة. وكانت تعلم أن قريشاً إنما تناوئ عن بيتها، مخافة أن تنصرف عنه العرب فلا تحج إليه، وعن أصنامها مخافة أن تنحط منزلتها في نفوس العرب، فتنحط تبعاً لذلك منزلة قريش. وكذلك كانت ثقيف تخشى أن تتأثر منزلة «اللات» بدعوة الإسلام، وكان فوق ذلك تحرص على رضا قريش، وتريد ألا تقطع ما بينها وبينها من صلوات أو لعله كان كذلك.

ومهما يكن السبب، فإن ثقيفاً لم تستجب لدعوة الرسول

ﷺ ولم تحسن لقاءه؛ فقد أقام صلى الله عليه وسلم، بينهم عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا كلمه وعرض عليه الإسلام، وطلب إليه أن يمنعه وينصره حتى يبلغ عن ربه، ولكن أحدًا منهم لم يجب دعوته، لا رجلًا ولا امرأة، ولا حرًا ولا عبدًا، ولا شريفًا ولا ضيعةً؛ فرجع عن الطائف محزونًا كسير القلب، يُحس ألم الصدمة إحساسًا قويًا، ويشعر بخيبة الأمل فيهم شعورًا مضاعفًا.

أشراف ثقيف تسخر من النبي

وكان أشد ما لى رسول الله ﷺ من أشراف ثقيف، ما لقيه من أبناء عمرو بن عُمر بن عَوْف، وهم عبدُ ياليل وأخواه مسعودٌ وحبيب، فقد ذهب صلى الله عليه وسلم، إليهم، وهم يومئذ سادات قومهم، وعرض عليهم دعوته، وطلب إليهم أن يمنعوه حتى يبلغ عن ربه، فلم يجد عندهم رغبة فيما دعاهم إليه. بل لم يجد منهم تحوُّة أهل المروءة، ولا بشاشة أهل الكرم، فقد استقبلوه جميعًا في ارتياب وشك، وردوا عليه في استهزاء وسخرية، وقال له أحدهم ساخراً: «ما وجد الله أحدًا يرسله غيرك»! وقال له الآخر متهمًا: «والله لا أكلمك أبدًا.. إن كنت رسولاً - كما تقول - فانت أعظم خطرًا من أن أرد عليك؛ وإن كنت تكذب على الله فما ينبغى أن

أَكَلَمَكَ» ! أما الثالث فقد تحدى بأن يهلك أَسْتَار الكعبة إن كان الله أرسل محمدًا رسولاً.

وعلم رسول الله ﷺ من رد هؤلاء الثلاثة أنه لا أمل في ثَقِيف وخَشْي أن تعلم قريش بما كان من أمره؛ فتقدم إليهم راجيًا أن يكتُموا عليه، ولا يُفْشُوا ما كان بينهم وبينه، ولكنهم لم يستجيبوا له. وكأنما كانوا أشد حرصًا على إفشاء الأمر منهم على كتمانِه، وكانوا على مودة قريش أحرص منهم على ستر محمد ابن عبد الله في موقفه ذاك؛ فلم تلبث أنبأوه أن ذاعت وشاعت في قريش.

وتسلط عليه سفهاءها

وكرهت ثَقِيف مُقام رسول الله ﷺ بينها، وخشيت عواقبه، وخافت أن يصيبها ما أصاب قريشًا من اضطراب الأمر وفساد ذات الين، فقالوا له: «يا محمد اخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض، فلنا نخاف على أحداثنا وضعفائنا أن تفتنهم». ولم يجد رسول الله ﷺ بُدًا من أن ينصرف عنهم، دون أن يستجيب له أحد منهم.

ولم تكن ثَقِيف كريمة في استقبال رسول الله ﷺ ولا في تشجيعها إياه؛ فقد أغروا به سفهاءهم، وسلطوا عليه عبيدهم

وصبيانهم يَسْبُونَهُ ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له على طريقه صفين؛ فلما مر، صلى الله عليه وسلم بين الصفين، أخذوا يرشقونه بالحجارة، فجعل لا يرفع رجلاً ولا يضعها إلا رَضَخوها بالحجارة، حتى ذميت رجلاه، وتخصبت نعلاه بالدماء. وكان كلما أزلَقَتْه الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجوه وهم يضحكون، ولم يكن هنالك من يدفع عنه أذى أولئك السفهاء، سوى مولاه زيد ابن حارثة، رضى الله عنه؛ فقد جعل زيد يقيه بنفسه، ويتلقى عنه ما يستطيع أن يتلقى من الحجارة، حتى شُجَّ في رأسه شجاً كثيراً.

وهكذا جعل أولئك السفهاء يطاردونه ويتعقبونه، حتى استطاع أن يحتسب منهم بحائط بستان هنالك لرجلين من قریش، فانصرفوا عنه بعد ما أجهدوه وأنكوه. فجلس، صلى الله عليه وسلم، تحت كَرْمَةٍ في البستان يسترد أنفاسه، وقد بلغ منه الحزن كل مبلغ، واشتد به الأسى على هؤلاء القوم الذين جاء إليهم بالهدى والنور، فكاء جزاؤه منهم هذا اللقاء المنكر، وهذا الوداع المهين.

موقف حرج

وعزّت على رسول الله ﷺ نفسه، وشعر بوخز الهوان يُقْرِى

فؤاده الطاهر، فجلس يتفكر في أمره، ويستعرض ظروفه وأحواله؛ فبدا له الموقف أشد ما يكون قسوة، وأعظم ما يكون حرجًا، وأحرج ما يكون إلى مدد من العون الإلهي، وقَبَسَ من النور السماوي، الذي تنكشف به الظلمات، وتنفرج به الكروب.. . لقد تنكرت له قريش حتى ضاقت به وضاق بها، وانقطع أمله في أن تؤمن بالله ورسوله، فجاء يَنشُدُ الأمل والنُصرة في ثقيف، فكان موقفها منه ومن دعوته أشد وأنكى من موقف قريش. وها هم أولاء يخرجونه من ديارهم أفبح إخراج، ويطردونه أشنع طرد، وها هو ذا طريد شريد، لا يكاد يطمئن على نفسه حتى يؤدي أمانته، ويبلغ رسالته.. . لقد أنكرته ثقيف كما أنكرته قريش، وانقطع أمله في هؤلاء الرحم وفي أولئك العشيرة؛ وإذا كان هؤلاء وأولئك قد أنكروه، وهم رَحْمه وعشيرته، وأولى الناس به، فهل يطمع في نُصرة من دونهم من القبائل والعشائر؟

لكن الله الذي كرمه بهذه الرسالة، ووعدده عليها النصر والتأييد، لا يمكن أن يخلف وعده؛ فإذا كان الأهل والعشيرة قد جفوه وأنكروه، فإن الله لن يتخلى عنه، وهو وحده القادر على أن يجعل له من هذه الشدة مخرجًا، ومن هذا الضيق فرجًا.. .!

الرسول يستغيث بربه

وتحركت نفسه بالأمل، وجاش صدره بالضراعة، واتجه بقلبه إلى الله يبتهل إليه، ويرجو منه الغوث والرحمة، ويستعيز به من خواطر الضعف والفشل، وهو اجس اليأس والقنوط، فقام يصلي؛ وكان إذ حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة.. فلما انتهى من صلاته، رفع يديه بالدعاء يقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين.. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تَكَلُّنِي؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي، أو إلى عدو ملَّكته أمري..؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو تُجَلِّ عليَّ سَخَطك..! لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!!».

عداس يكرم النبي ويؤمن به

وأثر منظره في صاحبي البستان - عتبة وشيبة ابني ربيعة - فتحركت له الرحمة في قلوبهما، وأشفقا عليه مما أصابه من الإعياء والهوان؛ فأرسلا إليه قِطْفًا من عنب البستان، مع غلام

لها يقال له : «عَدَّاس» .. فلما ذهب إليه عدَّاس وقدم له القطف، تناوله منه شاكراً ثم قال : «بسم الله الرحمن الرحيم» ! وأخذ يأكل. فدهش لذلك عداس، ونظر إليه قائلاً : «والله إن هذا لكلام ما يقوله أهل هذه البلدة». فقال له صلى الله عليه وسلم : «فمن أى البلاد أنت؟» قال عداس : «نصراني من نينوى». فقال صلى الله عليه وسلم : «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ابن متى؟ قال صلى الله عليه وسلم : «ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبي».

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، فجعل ابنا ربيعة ينظران إليه ويقول أحدهما لصاحبه : «لقد - والله - أفسد علينا غلامنا». فلما جاء عداس قال له : «ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟» قال عداس : «والله ما فى الأرض شيء خير من هذا ! لقد أخبرتني بأمر ما يعلمه إلا نبي». قال له : «ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه» .. ويقول الرواة : إن عداساً أسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه معدود فى صحابه رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول يرجو لأعدائه الهداية

كان ذلك اليوم أشد يوم مر برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان ما لقي فيه من سادات ثقيف ومن سفهائها، جديرًا بأن يززع الجبال الراسخة؛ ولكن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج من هذا الامتحان وهو أشد ما يكون ثقةً بربه عز وجل، وأكثر ما يكون طمأنينة إلى نصره وتأييده.

على أن هذا الذى لقيه من أهل الجهالة والسفه من قريش ومن ثقيف، لم يترك في نفسه شيئًا من الضغن لهم، ولا من الحقد عليهم؛ بل ظل يتمنى لهم الهداية، ويرجو أن يمن الله عليهم بنعمة الإيمان، أو يجعلها في ذرياتهم إن لم يكن قدرها لهم في أنفسهم.

روى البخارى ومسلم أن عائشة، رضى الله عنها، قالت لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟» قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت... وكان أشد ما لقيت يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت؛ فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق من الغم إلا وأنا بقرن الثعالب^(١)؛ فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت

(١) قرن الثعالب: مكان، لعله بين مكة والطائف.

فلما فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث الله لك ملك الجبال لتأمره بما شئت. قال صلى الله عليه وسلم: فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وما ردّوا عليك؛ وأنا ملك الجبال، وقد بعثني الله إليك لتأمرني، إن شئت دَمَمْتُ عليهم الجبال، وإن شئت خَسَفْتُ بهم الأرض. قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا شريك له ۝۱.

الجن يستمعون القرآن

انصرف رسول الله ﷺ من الطائف عائداً إلى مكة؛ فلما وصل في طريقه إلى مكان يسمى «تَحْلَة»، قام من الليل يصلي ويرتل من القرآن ما شاء الله أن يرتل. فمر به جماعة من الجن فاستمعوا إليه، فأعجبهم ما سمعوا من هذا الكلام الذي يهdy إلى الرشd، ويدعو إلى الحق، فأمنوا به وصدقوه، وذهبوا إلى قومهم يذيعون بينهم هذا النبأ، ويدعونهم إلى الإيمان بما جاء به هذا الرسول: ﴿قَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝۲﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ

ذنوبكم ويُجرِّكم من عذاب أليم^(١). ونزل الوحي على رسول الله ﷺ ينبئه بما كان من أمره وأمر هؤلاء الجن الذين آمنوا به وصدقوه، فاستبشر، صلى الله عليه وسلم، بذلك، وأيقن أن طلائع الفرج قد آذنت، وأن بشارت النصر قد واثت.

وأقام رسول الله ﷺ بنخلة ثلاثة أيام، يدبر لنفسه خطة الدخول على قريش، حتى يأمن أذاهم ويتق طغيانهم، ولا سيما بعد ما سبقه النبأ إليها بما كان بينه وبين ثقيف.

قال زيد بن حارثة: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟» ولعل زيذاً، رضى الله عنه، ظن أن رسول الله ﷺ لن يعود إلى قريش، بعد أن أيس من إيمانهم وبعد أن لقي ما لقي منهم لكن رسول الله كان على يقين بنصر الله عز وجل، فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

الرسول يعود إلى مكة

وكان لا بد له، صلى الله عليه وسلم، أن يعود إلى مكة، ليعرض دعوته على القبائل التي تحضر موسم الحج. وكان موسم الحج قد أقبل، وكان لا بد له من أحد يُجيره من قريش، حتى

(١) سورة الأحقاف آيتا ٣٠ - ٣١.

يستطيع أن يبلغ دعوته إلى القبائل التي حضرت الموسم. فأرسل إلى الأخنس بن شريق، يعرض عليه أن يدخل مكة في جواره؛ فأجاب معتذراً بأنه حليف قريش، وحليف قريش لا يُجِير على صَمِيمِهَا. فأرسل، صلى الله عليه وسلم، إلى سُهيل بن عمرو ليُجِيره؛ فتعلل بأن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب بن لؤى.. فأرسل، صلى الله عليه وسلم، إلى المُطعم بن عَدَى؛ فأجابه المُطعم إلى ما أراد، وبعث إليه أن يدخل مكة في جواره؛ فذهب رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة. فلما أصبح خرج صلى الله عليه وسلم وخرج معه المُطعم هو ونُوه الستة، وقد تقلدوا السيوف جميعاً؛ فدخلوا المسجد وقالوا لرسول الله : «طُفْ». واحتبوا بمحائل سيوفهم في المطاف. فأقبل أبو سفيان إلى المُطعم فقال : «أُجِير أم تابع»؟ قال المُطعم : «لا بل مجير». قال أبو سفيان : «إذن لا تُحْفَر»^(١) وجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه. فلما قضى طوافه وانصرف، انصرف معه المُطعم ونوه يحيطون به. وذهب أبو سفيان إلى مجلسه في ندى القوم، يخبرهم بما كان من جوار المُطعم لمحمد. واضطرت قريش أن تُمضى جوار المُطعم بن عدى، فلم تتعرض لرسول الله ﷺ بسوء لكنها جعلت تفكر وتدبر، منذ عرفت أن

(١) لا تحفر : لا ينقض عهدك ولا يعتدى أحد على من أجرته وتصدت لحمايته.

رسول الله ﷺ يريد أن يعرض دعوته على قبائل العرب في موسم الحج، وجعل زعماءها يتبادلون الرأي فيما يجب أن يفعلوا، حتى يحولوا بين قبائل العرب وبين هذه الدعوة الخطيرة.

عرض الدعوة على القبائل

أسواق العرب في موسم الحج

عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بعد رحلته إلى الطائف؛ وحضر موسم الحج، وأقبلت قبائل العرب على البيت الحرام من كل فج، تؤدى مناسك الحج، وتقدم للأصنام ما عليها من نذور وقرابين.

وكان من عادة العرب كلما حضروا إلى مكة في موسم الحج، أن ينتهزوا فرصة الأشهر الحرم في ذلك الموسم، فيعرضوا بضائعهم في أسواق مكة. وكان أشهر هذه الأسواق ثلاثة: عكاظ، ومجنة، وذو الحجاز. فأما «عكاظ» فهي سوق بين مكة والطائف، على بعد يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة؛ وأما «مجنة» فهي سوق بأسفل مكة، على نحو اثني عشر ميلاً منها؛ أما «ذو الحجاز» فهي سوق على يمين الموقف من عرفة، على بعد فرسخ^(١) منها، وهي أقرب الأسواق الثلاثة مكاناً إلى مكة.

(١) الفرسخ ثلاثة أميال. والميل ١٧٦٠ ياردة: أى نحو كيلو متر ونصف.

فكان العرب يبدءون بعكاظ، فيحضرون إليها مع هلال ذى القعدة، فيقيمون بها عشرين يومًا، ثم ينصرفون إلى مجنة فيقيمون بها عشرة أيام. فإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى الحجاز، فأقاموا بها ثمانى ليال. ثم يتروّون من مائها في اليوم الثامن، ويخرجون إلى عرفة ليؤدوا مناسك الحج.

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد عقد العزم على أن يَغشى هذه الأسواق، ليعرض نفسه على القبائل التي حضرت الموسم، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألمهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

قريش تستعد لتشويه الدعوة

وكانت قريش قد أعدت عُدتها، منذ عرفت ما عزم عليه رسول الله ﷺ من عرض دعوته على القبائل، وأجمعت رأيها على أن تشوّه هذه الدعوة عند قبائل العرب، وأن تحذرهما من سحر محمد، وما ينجم عنه من الفُرقة والخلاف بين الأهل والعشيرة. وقد أعدت لذلك مثلاً ما أصابها هي من فرقة وشقاق بسبب دعوته.

روى ابن إسحاق: «أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب
ستقدّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأياً
واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ بعضكم قول
بعض. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول
به. قال: بل أنتم فقلوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن.. قال:
لا والله ما هو بكاهن؛ ولقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن
ولا سَجْعَه. قالوا: فنقول: مجنون.. قال: ما هو بمجنون؛
لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بَحَنَقَه ولا تخالجه ولا وسوسته.
قالوا: فنقول: شاعر.. قال: ما هو بشاعر؛ فقد عرفنا
الشعر كله رَجَزَه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو
بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر.. قال: والله إن لقوله لحلاوة،
وإن أصله لَعَدَق، إن فرعه لجناة^(١)؛ وما أنتم بقائلين من هذا
شيئاً إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا:
ساحر.. جاء بقول هو سحر؛ يفرق به بين المرء وأبيه، وبين
المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته..! فتفرقوا
عنه بذلك.. فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم؛
لا يمر بهم أحد إلا حدّروه إياه، وذكروا له أمره.

* * *

^١ (١) قال السهيلي: هو استعارة من النخلة، التي ثبت أصلها وقوى، وطاب فرعها إذا
جنى والنخلة هي العلق.

قريش تحذر من سحر محمد

وجعلت قريش تتابع رسول الله ﷺ أينما ذهب، فكلما ذهب إلى قليلة من القبائل يعرض عليها دعوته، وقف عليه رجل من قريش يحذرها من سحره ومكره، ويتمه عندها بالجنون تارة، وبالكذب تارة، وبالسحر تارة أخرى. وكان لقريش مكانتها في نفوس العرب، فكان لقولهم أثره في إعراضهم عن رسول الله ﷺ وعدم استجابتهم لما يدعو إليه من الحق الواضح والنور المبين.

روى ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدؤلى أنه قال: «إني لغلام شاب مع أبي بنى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بنى فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبلغ عن الله ما بعثنى به». (قال): وخلفه رجل أحول وضئى، له غديرتان وعليه حلة عذنية. فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بنى فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسألخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك

ابن أقيش، إلى ما جاء به من البِدعة والضلالة؛ فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.. (قال): فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الرجل الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب: أبو لهب».

وروى البيهقي عن رجل من كنانة قال: «رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسوق ذى الحجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا».. وإذا رجل خلفه يَسْفُو عليه التراب - فإذا هو أبو جهل - وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى!».»

القبائل تستجيب لسعى قريش

ولكن ذلك لم يمنع رسول الله ﷺ أن يأتى القبائل فى منازلها، يعرض عليها دعوته، ويسألها نصره وحمايته حتى يبلغ رسالة ربه؛ غير مبال بما يلقاه من مناوأة قريش لدعوته، وسعيها لدى القبائل فى تشويهها، وتمويه الحق بالباطل فى أمرها؛ موقناً أن الغلبة للحق وإن طال الزمن، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً.

وقد تأثرت القبائل بسعى قريش أيما تأثر؛ فما من قبيلة

إلا وأعرضت عن رسول الله ﷺ وردت عليه دعوته في ذلك الموسم، وإن كانت طريقة الرد تختلف باختلاف القبائل؛ فمن القبائل من كان يغلظ له الرد، ومنها من كان يساومه في الثمن، ومنها من كان يسخر منه ويستهزئ بدعوته، ومنها من كان يَسْتَأْنِي بالرد حتى يفكر في الأمر وينظر في العواقب.

روى ابن الأثير وابن إسحاق وغيرهما من أصحاب السير: «أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أتى كندة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.. وأتى بني كلب في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.. وأتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يك أحد من العرب أقبح ردًا عليه منهم.. وأتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقالوا له: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء». فقالوا: أفنهدف نحورنا للعرب دونك^(١)، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بك. فأبوا عليه».

(١) نعرض أنفسنا للقتل من أجلك.

صورة من صور العرض

وذكر ابن كثير حديثاً مطولاً، رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقي عن علي بن أبي طالب، قال : « لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج - وأنا معه وأبو بكر - إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب. فتقدم أبو بكر فسلم - وكان أبو بكر مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نساباً^(١) - فقال : ممن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة. . وذكر على ما كان بين أبي بكر وبين القوم من حوار طويل. ثم قال : ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار، وإذا مشايخ لهم أقدارٌ وهيئات. فتقدم أبو بكر فسلم ثم قال : ممن القوم ؟ فقالوا : من بنى شيبان بن ثعلبة. فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! هؤلاء غُررٌ من قومهم. وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهاتئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جالاً ولساناً، وكانت له غديرتان من شعر تسقطان على صدره، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رضى الله عنه. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم، ؟ فقال مفروق : إنا

(١) نسابه : علياً بالنسب العرب.

لَنَزِيدُ عَلَى الْآلَفِ، وَلَنْ تُغْلِبَ الْآلَفُ مِنْ قَلَةٍ^(١). فقال له أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جد^(٢). فقال له أبو بكر رضى الله عنه: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح^(٣)؛ والنصر من عند الله، يُدِيلُنَا مَرَّةً، وَيُدِيلُ عَلَيْنَا مَرَّةً.. لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فهذا هو هذا. فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك. ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس؛ وقام أبو بكر يُظْلَهُ بشويه. قال مفروق: فإلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأن تؤوؤوا وتنصروني حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به. فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق. والله هو الغنى الحميد». قال له: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول

(١) يعنى أن الآلف عدد ليس بالقليل حتى يغلب.

(٢) هذه العبارة يفسرها ما بعدها.

(٣) الجياد: الخيل. واللقاح: الإبل. وهو يعنى أنهم أهل حرب وقتال وإن اسباب

القوة هى أهم ما عندهم.

الله، صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ: تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ؛ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ - لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ؛ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).
 فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه. فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ؛ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢). فقال له مفروق: دعوت - والله - يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال؛ ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

(١) سورة الأنعام الآيات ١٥١ - ١٥٣.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

وكانه أحب أن يشاركه في الكلام هاث بن قبيصة، فقال :
وهذا هاث بن قبيصة، شيخنا وصاحب ديننا، فقال هاث : قد
سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك، وإنى أرى أن
تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له
أول ولا آخر، لَزَلَّةٌ في الرأي، وقلَّةٌ نظر في العواقب؛ وإنما
تكون الزلة مع العجلة. وإن من ورائنا قومًا نكره أن نَعْقِدَ
عليهم عقدًا.. ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وتنظر.

وكانه أحب أن يشاركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال :
وهذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى : قد
سمعت مقالتك واستحسنيت قولك يا أخا قريش، وأعجبني
ما تكلمت به؛ والجواب هو جواب هاث بن قبيصة. وإن
أحببت أن نُؤْوِيكَ وننصرك مما يلي سائر العرب دون أنهار
كسرى، فعلنا؛ فإننا نزلنا على عهد أخذه علينا كِسْرَى،
ألا تُحَدِّثَ حَدِّثًا وَلَا نُؤْوِيَ مُحَدِّثًا^(١)؛ وإنى أرى أن هذا الأمر
الذى تدعوننا إليه هو ما تكرهه الملوك. فقال رسول الله، صلى
الله عليه وسلم : « ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم
بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه ».

(١) المحدث : هو الذى يحاول تغيير الوضع القائم. والمعنى أنهم لا يريدون أن يخرجوا
على طاعة كسرى - ملك الفرس - ولا أن يعاونوا من يخرج على طاعته، لما بينهم وبينه
من حلف.

كان الرسول ينشد المنعة والحماية حتى يبلغ رسالة ربه

وكان أهم ما يعنى رسول الله ﷺ أن يجد المنعة والقوة عند القوم الذين يدعوهم إلى دينه، وأن يجد لديهم الرغبة الخالصة في أن ينصروه ويمنعوه عن مخالفه فقد كان يعلم أن العرب جميعاً يحسبون حساب قريش، وأنه لا ينهض بهذه الدعوة إلا من آمن بها أصدق الإيمان، وباع نفسه لله في سبيلها عن رضا وطواعية. فكان كلما أقبل على قوم سألمهم عن نسبهم، وعن عددهم، وعن منعتهم؛ ثم عرض عليهم نفسه ودعاهم إلى الله، ورغبهم فيما جاءهم به من الخير وخيرهم بعد ذلك فيما يريدون لأنفسهم.. حتى إذا ما وجد منهم تعللاً أو اعتذاراً، أو رأى فيهم طمعاً أو مساومة، تركهم وانصرف عنهم إلى غيرهم.

قال موسى بن عُقبة عن الزُّهري: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، في تلك السنين، يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم؛ لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: «لا أكره أحدًا منكم على شيء؛ من رضى منكم بالذى أدعو إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه. إنما أريد أن تحجزوني فيما يراد لى من القتل، حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضى الله لى ولئن صحبني بما شاء» فلم يقبله

أحد منهم؛ وما يأتي أحدًا من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به؛ أترون أن رجلًا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟»

كان تأثير قريش على العرب شديدًا

والحق أن أكثر القبائل كانت تجامل قريشًا، وتتق أن تقف منها موقف العداء، لما كان لقريش من المكانة في نفوس العرب؛ فكان إعراض القبائل عن رسول الله ﷺ راجعًا في الأغلب إلى هذا السبب، أكثر مما هو راجع إلى عدم تصديق الرسول فيما يدعوهم إليه. ولقد بذلت قريش غاية جهدها في محاربة الرسول وتشويه دعوته، حتى أيقنت العرب أن صاحب هذه الدعوة هو أعدى عدوها، وأن كل من يتابعه أو يؤازره أو يمنعه، إنما يناصره على قريش وبيارزها جهراً بالعداوة.

ولكنه لفت أنظارهم إلى الدعوة

على أن قريشًا برغم ما بذلت من الجهد في تشويه دعوة الرسول ﷺ في تحذير الناس منه، لم تستطع أن تحول بين الدعوة وبين الظهور والانتشار؛ فقد صَدَّرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها. وكانت مبالغة قريش في التحذير منه، سببًا

فى لفت الأنظار إليه، وإلى ما يدعو إليه من هذا الدين الذى تحذر منه قريش.

صورة من صور التأثير

ونريد أن نختم هذا الفصل بقصة «الطفيل بن عمرو الدؤسى» فإن فيها دليلاً على شدة ما كان لقريش من التأثير على عقول الناس، كما أن فيها دليلاً على أن التأثير على شدته، لم يمنع أحرار العقول من صدق النظر فى أمر هذه الدعوة، دون أن يآبهوا لما قيل وما يقال عنها.

فقد كان الطفيل بن عمرو سيداً مطاعاً فى قبيلة دؤس، وكان قد قدم مكة حاجاً. فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه.. قال الطفيل: «فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت أذن حين غدوت إلى المسجد كُرسُفاً^(١)، فرقاً^(٢) من أن يبلغنى شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمع». (قال): فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، فقممت منه قريباً؛ فأبى الله إلا أن يُسمعنى بعض قوله (قال): فسمعت كلاماً حسناً. فقلت: وأكُل

(١) الكرسف: القطن.

(٢) فرقاً: خوفاً.

أُمي ! والله إن لرجلً لبيب شاعر، ما يخفى على الحسن من القبيح؛ فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته. (قال) : فكشيت حتى إذا انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته دخلت عليه، فقلت : يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا - لما كانوا يقولون - فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك، حتى سدّدت أذني بكُرسف لثلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعي قولك، فسمعت قولاً حسناً. فاعرض عليّ أمرك. (قال) : فعرض عليّ، صلى الله عليه وسلم، الإسلام، وتلا عليّ القرآن. فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه..! فأسلمت وشهدت شهادة الحق».

وانصرف الطفيل إلى قومه فجعل يدعوهم إلى الإسلام، فاعتلوا عليه حيناً. ولكنه لم يزل بهم حتى أسلم منهم نحو ثمانين بيتاً؛ فقدم بهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة في غزوة خيبر، فأسهم مع المسلمين في الغنائم.

ومهما يكن من شيء، فإن كيد قريش لدعوة الرسول ﷺ لم يكن شرّاً على الدعوة، بل كان شرّاً يحمل الخير في ثناياه، فقد ذاعت بسببه أنباؤها في جميع بلاد العرب. وكما كان هذا الكيد سبباً في إيمان الأحرار من أمثال الطفيل الدوسي، كان سبباً في

إيمان الأنصار من الأوس والخزرج، وكان سبباً في انتقال الدعوة إلى المدينة، ثم في انتشارها في بلاد العرب كلها، ثم فيما شاء الله بعد ذلك من أقطار الأرض.. ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

بيعة الأنصار

اختلاف الطبيعة بين مكة والمدينة

تختلف الطبيعة بين مكة والمدينة اختلافاً كبيراً في الموقع والمناخ، وفي الخصب والجذب، وفي الرطوبة والجفاف، وفي سهولة الأرض وحُزونها، وانسائها وانقباضها وصلابتها وليتها؛ وفي حرارة الجو وبرودته، وقلة الأمطار وكثرتها، وعذوبة المياه وملوحتها؛ وفي كثير من مشاهد الطبيعة وظواهرها. وتختلف المدينتان كذلك في طبيعة السكان وعناصرهم، وأعمالهم وأخلاقهم؛ وإن كان الجميع في كليتهما يشتركون في الكيان العام للجنس العربي، ويصطبغون بالصبغة العربية العامة، التي تفرضها طبيعة البيئة وتقاليدها.

فالمدينة - وهي يَثْرِب - تقع في وادٍ منبسط فسيح، تحوطه الحدائق والبساتين، وتملؤه الأشجار والظلال، وتكسوه الخضرة والنضارة، وتكثر فيه العيون والينابيع، وتجري خلاله المياه العذبة؛ فهي مدينة خصبة، وبلدة غنية بالخير والثمار. على أنها مع ذلك معتدلة الجو طيبة الهواء، وجوهاً أقرب ما يكون

شبهًا بجو القاهرة في مصر، وإن كانت تقع على خط العرض الذى تقع عليه مدينة الأقصر - وهو عرض ٤٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء - لأنها ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٢٠ مترًا.

أما مكة فإنها تقع في واد ضيق مقفر، تحوطه الجبال من جميع نواحيه، وتحصره حصراً شديداً، حتى يكاد يتصل بعضها ببعض في الشرق والغرب والجنوب؛ وأرضها صخرية صلبة، لا زرع فيها ولا شجر، إلا ما ينبت هنا وهناك متفرقاً فيما حوالها من أشجار البادية، كالضال والسَّمُر والأراك ونحو ذلك؛ وماؤها شحيح كثير الملوحة ينذر أن يكون عذباً، وأطيب مائها ماء زمزم، ولكنه مع ذلك لا يمكن الإدمان على شربه. ومن أجل أن الماء في مكة قليل نادر، كانت سقاية الحاج من أهم الأعمال التى يقوم بها أشراف مكة، وكانت وظيفة السقاية من أهم وظائف السُّدانة في البيت الحرام؛ حتى ظن أهلها أنها تعدل الإيمان بالله، والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس، وحتى خطأهم الله سبحانه في تفكيرهم هذا فقال: ﴿أَجْعَلُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم أعظم درجةً عند الله، وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم * خالدين فيها أبدًا، إن الله عنده أجرٌ عظيمٌ^(١). وتنحدر مكة إلى الجنوب من يثرب بنحو ٢٣ درجة، فتقع على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة، ولا ترتفع عن سطح البحر بأكثر من ٣٣٠ مترًا. ومن أجل ذلك كان جوها شديد الحرارة، وكان مطرها قليلًا نادرًا، وكان كثيرٌ من مظاهر الطبيعة فيها على عكس ما هي عليه في المدينة.

وقد ترك هذا الاختلاف الواضح بين الطبعتين أثره الواضح أيضًا في اختلاف طباع الناس في كلتا المدينتين؛ فقد عُرف أهل مكة بالشدة والصلابة في طباعهم، وبالقسوة والجفاف في معاملاتهم؛ في حين عرف أهل المدينة بلين الجانب، ودمائة الخلق، وحسن المعاملة.

سكان مكة عرب وسكان المدينة

خليط من العرب واليهود

كذلك كان من مظاهر هذا الاختلاف اختلاف عناصر السكان في كلا البلدين؛ فأهل مكة كلهم عربٌ خلَّص من

(١) سورة التوبة الآيات ١٩ - ٢٢.

قبيلة قريش، ليس بينهم غريب أو أجنبي عنهم، سوى عدد قليل جدًا من الأعاجم النازحين إلى مكة، لأغراض تجارية أو صناعية أو نحو ذلك، بعضهم من الروم، وبعضهم من القبط، وبعضهم من الأحباش، وبعضهم من عناصر أعجمية أخرى.

أما أهل المدينة فكانوا عنصرين متميزين؛ عنصر يهودي يتكون من ثلاث قبائل: بنى النضير، وبنى قُرَيْظَةَ، وبنى قَيْنَقَاعٍ؛ وعنصر عربي يتألف من قبيلتين: هما الأوس والخزرج. ويقول الرواة: إن الأوس والخزرج كانا أخوين شقيقين، وكان مسكنهما بلاد اليمن؛ وعلى تطاول الزمن تفرع الأخوان إلى فروع، وتفرعت فروعهما إلى فروع، وتكونت من هؤلاء وهؤلاء بطون كثيرة؛ ثم نزح الجميع إلى يثرب بعد سيل العرم، وهو السيل الذي أصاب بلاد اليمن في قديم الزمان، فهلّم سدودها، وخرّب ديارها، وطمس أراضيها، وفرق أهلها شيعًا في نواحي الأرض.

كان اختلاف العناصر في المدينة سببًا في تنازع أهلها

وكان اليهود هم أهل المدينة في ذلك الحين. فلما وفد الأوس والخزرج على المدينة عاشوا تحت سلطان اليهود، يَفْلَحُون لهم الأرض، ويأبُرُون النخل، ويعملون لهم عمل الأجراء؛

وظلوا على ذلك حيناً من الدهر، حتى هجم المسيحيون من أهل الشام على المدينة ذات عام، ينتقمون من اليهود لما فعلوا بالسيد المسيح، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، ومكنوا للأوس والخزرج بالمدينة؛ فاشتدت بذلك شوكة العرب، ونازعوا اليهود سلطانهم وسيادتهم؛ فبدأ بذلك عهد طويل من النزاع بين اليهود وبين الأوس والخزرج.

ورأى اليهود أن هؤلاء العرب يزاحمونهم في ديارهم، وينازعونهم ملكهم وسيادتهم، وأنهم على الأيام تشتد شوكتهم ويزداد سلطانهم؛ فلدجأوا إلى الحيلة للتفريق والوقعة بينهم، وجعلوا يدسّون بين الأوس والخزرج، ويستثيرون فيما بينهم أسباب العداوة، حتى تم لهم ما أرادوا من ذلك، وحل الخصام محل الوئام، وحلت البغضاء محل المودة، واستحكمت العداوة بين الحيين، فقامت بينهما حروب طاحنة، كان لها في حياتهم تاريخ طويل، وكانت لهم في ذلك أيام مشهورة، ووقائع مذكورة، يتحدث الرواة بشناعة ما كان فيها من فعال؛ حتى كان آخر هذه الأيام يوم «بُعَاث»، قبل الهجرة بنحو خمس سنين. وكان يوماً عبوساً، دارت الدائرة في آخره على الخزرج، فأراد الأوس أن يُبيدوهم عن آخرهم، وأن يقتلوهم حرقاً في ديارهم، لولا أن بعض زعمائهم حال بينهم وبين ما يريدون وقال لهم: «إنهم

إخوانكم على كل حال، وإن جوارهم خير من جوار الثعالب»
- يعنى اليهود.

وقد شعرت الأوس والخزرج جميعاً بعد هذا اليوم بسوء ما يصنع بعضهم ببعض، وأدركوا أن المغلوب والغالب من كليهما خاسر في هذه الخصومة، وأن الكاسب فيها وحده هم اليهود أعداؤهم؛ فسعى العقلاء منهم لإصلاح ذات البين، وفكروا في أن يُنصبوا عليهم زعيماً واحداً منهم، يَنْضَوون كلهم تحت لوائه، ويكونون يداً واحدة على أعدائهم اليهود، واختاروا لذلك رجلاً من الخزرج، وهُمُوا أن يُنصبوه ملكاً عليهم؛ ولكن الله أراد بهم خيراً مما أرادوا بأنفسهم، فهداهم إلى دينه القيم، وجعلهم أنصاراً لرسوله محمد، صلى الله عليه وسلم.

على أن فساد ذات البين في يثرب لم يكن مقصوداً على العرب وحدهم، بل كان كذلك بين اليهود بعضهم وبعض، فكثيراً ما كانت الحرب تنشب بين بنى النضير وبنى قريظة، وبين بنى قريظة وبنى قينقاع، مع أن هذا محرم عليهم في شريعتهم. وقد عيَّره الله بذلك في القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ

بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ؛ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(١).

ويقول المفسرون: إن بعض اليهود كان يحالف الأوس وبعضهم كان يحالف الخزرج، ثم يتحاربون، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي، مخالفاً بذلك حكم التوراة. فإذا وضعت الحرب أوزارها، جعلوا يفتدون إخوانهم الأسرى بالمال، نزولا على حكم التوراة أيضاً. فهذا معنى قوله تعالى لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وهكذا كانت يثرب مسرحاً للنزاع الدائم والتنافس المستمر، بين اليهود والعرب، وبين العرب أنفسهم، وبين اليهود أنفسهم كذلك، وكان كل فريق يترصد بعدوه الدوائر، ويتحين له الفرص، ويحاول أن يهلكه ولو استعان عليه بعدوه.

كان هذا النزاع سبباً في تهيئة نفوس العرب للإسلام وكان اليهود أهل كتاب وعلم، وكان الأوس والخزرج أميين لا يقرءون ولا يكتبون؛ وكانوا كذلك أهل شرك وأوثان، يعبدون

(١) سورة البقرة آيتا ٨٤، ٨٥.

الأصنام كما يعبدوها سائر العرب. وكان اليهود يعيرونهم بذلك ويحقرونهم، ويعيرون عليهم جهلهم وغباوتهم، ويتطاولون عليهم بعلمهم وكتابهم؛ وكلما رأوا منهم تمردًا قالوا لهم: «إن نبيًا سُبِّعَتْ الآن قد أَظْلَمَ زمانُهُ، نَتَّبِعْهُ فنقتلكم معه قتل عاد وإرم». يهددونهم بذلك ويتوعدونهم. من أجل ذلك كان الأوس والخزرج يترقبون ظهور هذا النبي، ويتمنّون لو سبقوا اليهود إليه، فاتبعوه وآمنوا به، واستنصروا به عليهم. كذلك كان تعيير اليهود للعرب بأصنامهم قد جعل كثيرًا من عقلائهم يتبرمون بهذا الدين الذى يدينون به، وبهذه الحجارة التى يعبدونها، ويتمنّون لو كان لهم دين كدين اليهود وكتاب ككتابهم، أو كان لهم رسول يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم. وهكذا كانت نفوس العرب فى يثرب قد تهيأت لقبول دعوة الإسلام، واستشرفت لرؤية رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم.

الأنصار يلاقون النبي فى موسم الحج فيقبلون دعوته

فلما كان هذا الموسم من مواسم الحج، خرج جماعة من الخزرج إلى مكة، فسمعوا رسول الله ﷺ يعرض دعوته على القبائل، ورأوا أمارات الصدق بادية عليه، فقال بعضهم لبعض: «والله إنه هُوَ النبيُّ الذى تَوَعَّدكم به يهود؛ فلا يسبقنَّكم إليه». فما كاد رسول الله يكلمهم ويعرض عليهم

دينه، حتى آمنوا به وصدّقوه، ورجّوا أن يصلح الله به ذات بينهم، وقالوا له: «إنا تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم؛ فعسى أن يجمعهم الله بك. وسنقدّم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجلَ أعزُّ منك».. وواعدوه الموسمَ من العام المقبل، ثم انصرفوا راجعين إلى بلدهم وقد آمنوا وصدقوا. فلما قدموا المدينة، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعّوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

فلما كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا: عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، واجتمعوا بالنبي ليلا عند العقبة الكبرى^(١)؛ فعرض عليهم دعوة الإسلام، وطلب إليهم أن يبايعوه عليها فبايعوه. وسميت هذه البيعة «بيعة العقبة الأولى»، وكانت في السنة الثانية عشرة من البعثة.

روى ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأق ببهتان نفتره

(١) العقبة هي المكان الذى ترمى فيه الجمار أيام الحج، وهي ثلاث عقبات: الكبرى والصغرى والوسطى.

بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. قال : « فإن وَفَّيْتُمْ
فلکم الجنة، وإن غَشَّيْتُمْ من ذلك شيئاً فأُخِذْتُمْ بِجَدِّهِ في الدنيا
فهو كفارة له، وإن سُرَّتُمْ عليه إلى يوم القيامة فأمرکم إلى الله
عز وجل، إن شاء عَذَّب وإن شاء غَفَرَ ».

قال ابن إسحاق : « فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول
الله ﷺ معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْر، وأمره أن يُقرئهم القرآن،
ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. فكان يسمى « المقرئ »
بالمدينة ».

صورة من صور الدعوة إلى الإسلام في المدينة

ونزل مصعبُ بن عُمَيْر بالمدينة على أسعد بن زُرَّارة من
بنى النجار، فأقام عنده. وكان أسعد من النفر الذين أسلموا
من الخزرج يوم عرض عليهم رسول الله ﷺ دعوته، ومن الذين
حضرُوا بيعة العقبة الأولى والثانية. وجعل أسعد ومصعب
يتعاونان على الدعوة إلى الله، ويجتهدان اجتهدًا شديدًا في
الترويج في الإسلام. وكان لهما في ذلك حِيلٌ لطيفة، ومداخل
محببة إلى القلوب.

ذكر ابن الأثير وابن إسحاق : أن أسعد بن زُرَّارة خرج
بمصعب بن عمير، يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَر؛

فدخل به حائطاً^(١) من حوائط بنى ظفر، واجتمع إليها رجال من أسلم. فسمع به سعد بن معاذ وأُسَيْدُ بن الحَضِر - وهما يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، كلاهما مشرك على دين قومه - فقال: سعد لأُسَيْد: «انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فازجرهما وأُثْههما، فإنه لولا أسعد بن زرارة - وهو ابن خالتي - كفيتك ذلك. فأخذ أُسَيْدُ حُرْثته ثم أقبل عليهما فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا عنا! فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكرهه.. فقال: أنصفت. ثم جلس إليهما؛ فكلمه مصعب بالإسلام فقال: ما أحسن هذا وأجله! كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل وتطهر ثيابك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين.. ففعل ذلك وأسلم. ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه: سعد بن معاذ. وسأرسله إليكما.. ثم انصرف إلى سعد وقومه. فلما نظر إليه سعد قال: أحلف بالله، لقد جاءكم أُسَيْدُ بغير الوجه الذى ذهب به! ثم قال لأُسَيْد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا:

(١) الحائط: البستان ذو الأشجار المثمرة. وكان من عادة العرب أن يحيطوا ببساتينهم بحائط من البنيان فسمى البستان، بالحائط.

نفعل ما أحببت. وقد حَدَّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه. فقام سعد مغضبًا مبادرًا لخوفه مما ذكر له. فلما رآهما مطمئنين عرف ما أراد أسيد؛ فوقف عليهما مُتَشَتِّمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة والله، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ هذا منى! أتغشانا في دارنا بما نكره؟ فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؛ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره...؟ فجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فهش له وجهه، ثم قال: كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ فقالا له ما قالنا لأسيد. فتظهر وأسلم، ثم عاد إلى نادى قومه ومعه أسيد ابن حضير. فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله! (قال): فوالله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة.. ولم يزل مصعب وأسعد يدعوان إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات.

الدعوة تنتشر في المدينة بعد طول احتباسها في مكة
وهكذا لم يأت الموسم التالى من مواسم الحج، حتى كان

الإسلام قد شاع في يثرب، وانتشر في ديار الأوس والخزرج. فلما حضر الموسم تأهب للقاء النبي ﷺ من هؤلاء الأنصار ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان؛ قد خرجوا في حجاج قومهم من المشركين، وخرج معهم مصعب بن عمير. فلما وصلوا إلى مكة بادر مصعب إلى رسول الله ﷺ، فبشره بما كان من شيعه الإسلام بين الأنصار، وما كان من استعدادهم لحماية الرسول وصحبه حتى يبلغ رسالته ربه. وكان فرح النبي ﷺ عظيماً بهذه البشرى؛ فقد آذن الله لدينه بالنصر، وتحقق للنبي ما كان يرجوه من حماية الدعوة التي فقدت أنصارها في مكة، ولم تجد لها في قبائل العرب من غيرهم ناصرًا ولا معينًا.

لقد ظلت الدعوة حبيسة في مكة ثلاثة عشر عامًا، فلم يؤمن بها إلا هذا العدد القليل من المستضعفين، ووقفت العقبات في طريقها من كل ناحية حتى توقفت أو كادت، وأصبح المؤمنون بها بين مفتون في دينه، أو معذب في أهله، أو مشرد عن دياره، أو مقيم على أحر من الجمر من شدة ما يلاق من الهوان والإذلال. فقد غدا الأمر إذن يقتضي التفكير في أمر هؤلاء المعذبين، وفي إنقاذهم مما يعانون من هذا البلاء؛ كما أصبح يقتضي الانتقال بهذه الدعوة الحبيسة إلى أرض كغير هذه الأرض، وناس غير هؤلاء الناس. وكان الله جل شأنه قد

بشر رسوله بالنصر، وأراه في منامه دار هجرته أرضًا ذات نخيل؛ فاستبشر، صلى الله عليه وسلم، بذلك، وبشر به أصحابه وقال لهم: «أريت دار هجرتكم.. أريت سَبِيحَةَ ذات نخيل بين لا بَتَيْن^(١)؛ ولو كانت السَّراة أرضًا ذات نخل وسباخ لقلت: هي هي!».

وها هي ذى المدينة يثرب تستقبل دعوته بقلوب مفتوحة للإيمان، نفوس راغبة في التضحية، وها هم أولاء أهلها من الأوس والخزرج مستعدون لإيوائه ونصره. فقد آن الأوان إذن للخروج بدينه وصحبه من هذه القرية الظالم أهلها، إلى هذه البلدة الطيبة يثرب، حيث المنعة والنصر والحرية، وحيث النفوس المستعدة لتقبل دين الله والتضحية في سبيله.

الرسول يمهّد للهجرة

وأخذ، صلى الله عليه وسلم، يعدّ العدة لهذه النّقلة الجديدة، بعقد بيعة جديدة مع أولئك الأنصار، يضمن فيها لنفسه ولأصحابه المنعة والحماية، ويضمن لدعوته السير في طريقها، دون أن يعترضها معترض، أو يقف في سبيلها واقف؛ وهذا ما كان بينه وبين صحبه الأنصار في هذه البيعة. ولقد

(١) السبخة: أرض ذات نزول ملح. واللاتان: هما الحرتان اللتان تحدان المدينة شرقًا وغربًا، وهما هضبتان صخريتان تتألفان من حجارة نخرة سوداء.

كان، صلى الله عليه وسلم، حريصاً على أن تتم هذه البيعة في سر، وألا تتسرب أنباؤها إلى قريش؛ فواعد أصحابه من الأنصار «شِعْبَ الْعَقَبَةِ»، في ليلة اليوم الثاني من أيام التشريق، وأوحى إليهم أن يكتموا هذا الأمر على من معهم من المشركين، وأن يأتوا إليه متفرقين إذا مضى ثلث الليل الأول، لا ينتظرون غائباً ولا يوقظون نائماً. وفي الليلة الموعودة، أوحى رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يقف على فَمِ الشعب من ناحية، وإلى علي ابن أبي طالب أن يقف في فَمِ من الناحية الأخرى. ثم جاء ومعه عمه العباس، ليأخذ البيعة له ولأصحابه على هؤلاء الأنصار المتحمسين.

البيعة الكبرى

ويحدثنا كعب بن مالك، رضى الله عنه، كيف تمت هذه البيعة فيقول: «خرجنا مع حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقَّهنا، ومعنا البراء بن مَعْرُور سيدنا وكبيرنا.. حتى قدمنا مكة. فخرجنا نسأل عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. فقال: هل تعرفان العباس ابن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم - وقد كنا نعرف العباس،

وكان لا يزال يقدّم علينا تاجرًا - قال : فإذا دخلنا المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس . (قال) : فدخلنا المسجد، وإذا العباس جالس، ورسول الله جالس معه. فسلمنا ثم جلسنا. فقال صلى الله عليه وسلم، للعباس : « هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ » قال : نعم. هذا البراء ابن معرور سيد قومه. وهذا كعب بن مالك. (قال) : فوالله ما أنسى قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « الشاعر؟ » قال : نعم.

قال كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله فيها، ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حزام أبو جابر - سيد من سادتنا - أخذناه. وكنا قد كتمنا من معنا من المشركين أمرنا. فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر، إنك سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً. ثم دعواناه إلى الإسلام فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا. فشهد معنا العقبة وكان نقيماً. (قال) : فتمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلل القطأ مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون

رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا.

(قال): فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: «يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحلمتم من ذلك؛ وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده». فقال البراء بن معرور: «إنا - والله - لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكننا نريد الوفاء والصدق. وبذل مُهْجِنَا دون رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فنحن نبايعك».

فتكلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «تبايعوني على السمع

والطاعة فى الشَّطـ والكَسل، والنَّفقة فى العسر واليسر؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم؛ وعلى أن تنصرونى، فتمنعونى - إذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».. (قال) فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : «نعم، والذي بعثك بالحق لتمنعنك مما تمنع منه أُرنا.. فبايعنا يا رسول الله، فنحن - والله - أبناء الحروب وأهل الحلقة^(١)، ورثناها كابراً عن كابر».. (قال) : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله - أبو الهيثم بن التَّيهان، فقال : يا رسول الله، «إن بيننا وبين الرجال حبالا، وأنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا»؟ (قال) : فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال : «بل الدَّم الدم، والهدم الهدم.. ! أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم..!».

قال كعب : وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاء». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً : تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.. فقال، صلى الله عليه وسلم، للنقباء : «أنتم

(١) الحلقة : السلاح.

على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم.
وأنا كفيل على قومي». قالوا: «نعم».

(قال): فلما اجتمع القوم لبيعة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال العباس بن عباد: «يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبائعون هذا الرجل»..؟ قالوا: «نعم». قال: «إنكم تبائعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنه إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتلا.. أسلمتموه، فمن الآن فدعوه؛ فهو والله - إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه - على نهكة الأموال وقتل الأشراف - فخذوه؛ فهو والله خير السدنيا والآخرة».. قالوا: «فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف».. فقالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة»..! قالوا: «ابسط يدك».. فبسط يده فبايعوه.. ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ارفضوا إلى رحالكم».
(قال): فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا فيها حتى أصبحنا.

فلما أصبحنا غدت علينا جلة^(١) قريش حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على

(١) جلة القوم: سادتهم وكبرائهم.

حربنا، وإنه - والله - ما من حيٍّ من العرب أبغضَ إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم...! (قال): فاتبعت مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه! (قال): وصدقوا.. لم يعلموه. وجعل بعضنا ينظر إلى بعض..».

كانت هذه البيعة قرة عين المسلمين

كانت هذه البيعة هي بيعة العقبة الثانية. وكانت أخطرَ بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ فقد تغير بها خط السير فجأة، وتطورت بعدها الحوادث تطوراً سريعاً بين المسلمين وقريش.. فأما المسلمون فقد انفتحت أمامهم أبواب من الآمال واسعة، وأحسوا بعدها بما يحس به المكروب وَجَدَ الفرج بعد الضيق، والأمل بعد اليأس، والأمن بعد الخوف، فأخذ يتنفس بملء رثيته نفس الراحة والطمأنينة.. فقد قضوا في مكة ثلاثة عشر عاماً وهم قليل مستضعفون في الأرض، يذوقون ألوان العذاب والاضطهاد، وَتَمْتَحِنُونَ في إيمانهم أشد الامتحان؛ فقتل منهم من قتل، وفُتِنَ منهم من فُتِنَ، وصبر منهم من صبر، وفر بدينه من فر؛ حتى أصبحوا واليأس يكاد يغلبهم على أمرهم، لولا أن عصم الله قلوبهم بالإيمان، وأيدهم بروح منه. فلما تمت هذه البيعة بين رسول الله ﷺ والأنصار ملأ الأمل قلوبهم، وأيقنوا

أن نصر الله قريب؛ فجعلوا يتسابقون في الهجرة إلى يثرب،
فآرّين بدينهم إلى الله، مضحين بكل ما يحرص عليه الناس من
عرّض الحياة الدنيا.

وصدمة عنيفة للمشرّكين

وأما قريش فقد أخذت أخذًا بهذه البيعة، وفوجئت بما لم
يكن لها في حساب؛ فقد ظنت قريش أنها قد سيطرت على
الموقف من جميع نواحيه، وأنها استطاعت أن تحبس الدعوة بين
جبال مكة، وأن تؤثر على قلوب العرب فتحول بينهم وبينها إلى
الأبد. كما ظنت أنها بما كان لها من المهابة بين العرب، قد
أمنت أن يعتدى على حرمتها أحد، أو يقف منها أحد موقف
التحدى والعداوة بمنصرة هذه الدعوة. وعلى أساس هذا الظن
أمّنوا واطمأنوا، وأيقنوا أن العرب جميعًا لن يؤمنوا بهذه الدعوة،
ولن يؤيدوا صاحبها بالمنعة والمؤازرة. فلما علموا بأن الأوس
والخزرج من أهل المدينة، قد تابعوا محمدًا، وباعوه على أن
ينصروه ويمنعوه عن خالفه.. صُدموا بهذا النبأ صدمة عنيفة،
وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، وطاشت أحلامهم، واضطرب تفكيرهم؛
فانقلبوا يلاحقون الأنصار في كل طريق، ويطلبونهم في كل
وجه، يريدون أن ينتزعوا من أعناقهم هذه البيعة الخطيرة. ولكن
هيهات هيهات.. ﴿فوق الحق وظل ما كانوا يعملون﴾ * فغلبوا

هنالك وانقلبوا صاغرين»^(١).

قال كعب بن مالك: «.. ونَفَر الناس من مِنى. فَتَنَطَّس القوم الخبر فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فأما المنذر فقد أعجز القوم ففر منهم، وأما سعد بن عبادة فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله^(٢)، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويحذبونه بُجْمَتَه^(٣)؛ وكان ذا شعر كثير..

قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني، إذ أوى لي رجل ممن معهم، فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله، لقد كنت أجير لجبير ابن مطعم تجارته. وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وللحارث ابن حرب بن أمية. فقال: فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما (قال): ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة. فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح^(٤) ليَهْتَفُ باسمكما. قالا: من هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله، إن كان ليَجِير لنا

(١) سورة الأعراف آيتا ١١٨، ١١٩.

(٢) النسخ: سير عريض تشد به الرجال.

(٣) الجملة: مجتمع شعر الرأس.

(٤) الأبطح: واد بظاهر مكة واسع كثير الحصى.

تجارنا، ومنعهم أن يظلموا ببلده.. فجاءا إليه فخلصاه من أيديهم».

قال ابن سعد في الطبقات : واثمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عباد أن يَكُروا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم. فدخل القوم جميعاً إلى المدينة.

وحدًا فاصلاً بين عهدين من عهود الدعوة

لقد كانت هذه البيعة حدًا فاصلاً بين عهدين من عهود الدعوة.. كان أولهما عهد ابتلاء واختبار، وهو العهد الذى قضاه المسلمون بمكة؛ فقد عاشوا فيه قلة مستضعفين، بين عدو قاهر جبار، يسومهم سوء العذاب، ويذيقهم من صنوف الأذى ما لا يمكن أن يطاق، ولا أن يحتمله بشر من الناس، إلا أن يكون له مدد قوى من الإيمان الصادق واليقين الثابت. وكأنما كان ذلك امتحاناً من الله لهم، أراد به تمحيصهم، وإعدادهم ليكونوا نماذج للعقيدة الصالحة، التى أراد لهم أن ينشروها فى الأرض.

فلما تأكد نجاحهم فى الامتحان، وتبين صدق إيمانهم وقوة عزمهم، أدركهم عهد المكافأة والجزاء على الصبر؛ فاستنقذهم الله من هذا العذاب، وهياً لهم هذه المدينة الآمنة فهاجروا

إليها، وقبض لهم هؤلاء الإخوة المخلصين من أهلها فأوَّوهم
ونصروهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وآثروهم على أنفسهم
بكثير من الطيبات؛ وفتح الله لهم أبواب رحمته فبدَّل خوفهم
أمنًا، وذلم عِزًّا، وهوانهم كرامة.

ولقد منَّ الله عليهم بهذه النعمة إذ يقول سبحانه :
﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن
يتخطَّفكم الناسُ فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات،
لعلكم تشكرون﴾^(١).

(١) سورة الأنفال الآية ٢٦

المؤامرة الكبرى

قریش تحس الخطر فی بیعة الأنصار
فتحول بین المسلمین و بین الهجرة

أحسَّت قریش مبلغ الخطر الذی یهددها من بیعة العقبة الثانية، فقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود من الناس، وبايعهم رسول الله على أن يكون واحدًا منهم، يحارب من حاربهم، ويسالم من سالمهم؛ فهي القوة المسلحة إذن من وراء محمد تشد أزره، وتحمى ظهره، وتنصره على عدوه. وقریش أعدى عدو للرسول، صلى الله عليه وسلم؛ وأشد من ناواه وتعرض للصد عن دعوته، وحال بينه وبين ما يريد من نشرها وتبليغها للناس؛ وأشد من آذى المؤمنين به، وجاهد أعنف الجهاد في فتنهم عن دينهم، وارجاعهم إلى ظلمات الكفر والضلال، بعد أن أشرق في قلوبهم نور الإيمان والهدى. ولقد استطاعوا بما كان لهم من الحول والبطول أن يحصروا الإسلام في هذا النفر القليل من أصحابه، وأن يحبسوا الدعوة في مكة ثلاثة عشر عامًا، فلا يعرف العرب من أنبائها

إلا القليل، وأن يشوهوا حقيقتها وأغراضها في أذهانهم، فلا يؤمنوا بها ولا يلتفتوا إليها. ولكن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، أراد لدينه أن ينتشر فى الأرض، فقيض له هذه الفئة المؤمنة من أهل المدينة، فأمنت برسوله، وصدقت بما جاء به من البينات والهدى، وعاهدته على أن تدافع عنه بالأنفس والأموال، وأن تجاهد فى سبيله كل عدو، مهما كان لونه ومهما كانت مكانته.

وكانت قريش تعرف ما عليه الأوس والخزرج من قوة البأس، فجعلت تحسب حساب هذه القوة إذا وقفت فى طريقها إلى الشام، فهددت تجارتها فى الذهاب وفى الإياب. ولا سيما إذا هاجر المؤمنون من أهل مكة فانضموا إليهم، وأصبح الجميع يداً واحدة على قريش. وفيما كانت قريش تفكر وتقدر، كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد دبر الأمر لأصحابه، فأذن لهم فى الخروج إلى إخوانهم الأنصار. فجعلوا يتسللون إلى المدينة، ويهاجرون إليها واحداً بعد واحد، وجماعة إثر جماعة، تاركين وراءهم كل ما يُثقلهم من مال ومتاع، وأهل وعشيرة.

قال ابن إسحاق: «لما أذن الله تعالى لرسوله فى الحرب، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من

المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللاحق بإخوانهم من الأنصار، وقال: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها» فخرجوا إليها أرسالا؛ وأقام - صلى الله عليه وسلم - بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة».

المسلمون يتسللون تباعاً إلى المدينة

فلما رأَت قريش أن المسلمين يتسللون تباعاً من بينهم، ويلتحقون بإخوانهم الأنصار من أهل المدينة، أحسَّت بواذر الخطر في هذه الهجرة، فجعلت تحول بينهم وبين ما يريدون منها، وتمنع من تستطيع أن تمنعه منهم. لكنها لم تستطع أن تمنع إلا قليلاً من المستضعفين، أما الأقوياء بعصيتهم أو بشخصيتهم فقد استطاعوا أن يخرجوا على رغم قريش.

ويروى الرواة في هجرة أصحاب النبي ﷺ قصصاً كثيرة، تدل على شدة ماكانوا يلاقون من الأذى من رجال قريش، وعلى عظم ماكانوا يقومون به من تضحيات في سبيل هجرتهم.. فقد رَوَوْا أن أبا سَلَمَةَ لما أقبل مهاجراً إلى المدينة، وقفت دونه قريش تحول بينه وبين ولده وزوجته؛ فأثر أن يتركها ويفرّ بدينه إلى الله، حتى ردهما الله عليه فهاجرا إليه.

هجرة أبي سلمة وزوجه

وقد تحدثت أم سلمة - فيما رواه ابن إسحاق - بما كان من أمرها وأمر زوجها في هذه الهجرة فقالت : « لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة، رحل لي بعيته ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجرى، ثم خرج يقود بى بعيته. فلما رآته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : « هذه نفسك غلبتنا عليها. أرأيت صاحبتنا هذه، علام نترك تسيرها في البلاد » (قالت) : فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه (قالت) : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد - رهط أبي سلمة - وقالوا : « والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ! ». (قالت) : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة. (قالت) : ففرق بينى وبين ابني وبين زوجى.

(قالت) : فكنت أخرج في كل غداة فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى، سنة أو قريباً منها؛ حتى مر بى رجل من بنى عمى - أحد بنى المغيرة - فرأى ما بى فرحنى فقال لبنى المغيرة : « ألا ترحمون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! » (قالت) : فقالوا لى : « الحق بزواجك إن

شئت». (قالت): فرد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابني فارتحلت بعبري، ثم أخذت ابني فوضعتة في حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله.

حتى إذا كنت بالتَّعِيم، لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة - أخا بنى عبد الدار - فقال لى: إلى أين يا ابنة أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معى أحد إلا الله وبنى هذا! فقال: والله مالك من مُتْرَك^(١). فأخذ بُحْطَام البعير فانطلق معى يهوى بى^(٢). فوالله ما صحبت رجلا من العرب قَط أرى أنه كان أكرم منه!.. كان إذا بلغ المنزل أنلخ بى، ثم استأخر عنى؛ حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه، ثم قيده فى الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرَوَاح قام إلى ببعيرى فقدمه فرحله، ثم استأخر عنى وقال: اركبى. فإذا ركبت فاستويت على ببعيرى، أتى فأخذ بِحُطَامه، فقادنى حتى ينزل بى.. فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة. فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلا - فادخلها على بركة الله. ثم انصرف راجعا.

(١) من مترك: أى لا يصح أن تتركى وحدك.

(٢) يهوى: أى يسير بى سيرا حثيثا.

إلى مكة.. فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة؛ وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن أبي طلحة!»

هجرة صُهيْب

ورَوَوْا أن صُهيْب بن سِنَان لما أراد الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صُعْلوكًا حقيرًا، فكثُر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت؛ ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك أبدًا!.. فقال لهم صُهيْب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى، أُتُخْلَوْنَ سبيلِي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالى.. (قال): فبلغ ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يقول: «رَبِّحْ صُهيْب! رَبِّحْ صُهيْب!».. وأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).. فتلقاه أصحابه بها يبشرونه عند قدومه إلى المدينة.

رد عيَاش إلى مكة

ورَوَوْا أن عيَاش بن أبي ربيعة لما هاجر إلى المدينة، خرج إليه أبو جهل بن هشام وأخوه الحارث بن هشام - وكان عيَاش

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٧.

أخاهما وابن عمهما، وكان أصغر ولد أمه - فأخبراه أن أمه نذرت ألا تغسل شعرها، ولا عيس رأسها مُشط، ولا تستظل من شمس، حتى تراه. ثم قالوا له : وأنت أحب ولد أمك إليها، وأنت في دين منه البر للوالدين؛ فارجع إلى أمك، واعبد ربك في مكة كما تعبد في المدينة. فَرَّقَتْ نفسه وصدقهما فقال له عمر بن الخطاب : ما يريدان - والله - إلا فتنتك عن دينك، فاحذرهما! فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت. فقال عياش : أبرّ أمي، ولى مال هناك آخذه. فقال له عمر: خذ نصف مالى ولا تذهب معها. فأبى إلا أن يخرج معها. فقال له عمر: أما إذ أبيت إلا ذلك فخذ ناقتي هذه فإنها نجبية ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من أمرهما ريب فانج عليها.. فخرج عليها معها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخى، والله لقد استغلظت بعيرى هذا^(١)، أفلا تُعْقِبْنِي^(٢) على ناقتك هذه؟ قال : بلى. فأنخ وأناخا ليتحول عليها.. فلما استَوَّوا بالأرض عَدَوْا عليه فأوثقاه بالحبال، وجلداه نَحْوًا من مائة جلدة. ثم دخلا به مكة مُوثَقًا في ضوء النهار، وقالوا : يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهائنا!

(١) استغلظت : أى تعبت من ركوبه.

(٢) التعاقب : تبادل الركوب على الدابة.

هجرة عمر

أما عمر بن الخطاب، فقد أبى إلا أن يستعلن بهجرته كما استعلن بإسلامه، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه قال : ما علمت أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مخفياً؛ إلا عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فإنه لما هم بالهجرة، تقلد سيفه وتنكب قوسه، وانتضى في يديه أسهماً، واختصر عَنزته - وهي الحربة الصغيرة علقها في خاصرته - ومضى قِبَل الكعبة والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق^(١) واحدة واحدة فقال : شأنت الوجوه ؟ لا يُرْغِم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن تُثَكِّله أمه، أو يَتِمَّ ولده، أو تُرْمَلَ زوجته، فَلْيَلْقَني وراء هذا الوادى ! قال علي : فما تبعه أحد. ثم مضى لوجهه.

الرياح تصفر في دور المهاجرين

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة حتى خلت منهم ديارها، وحتى هُجرت دور بأسرها، وغُلقت أبوابها، وغدت تصفر فيها الرياح. وكان من هذه الدور دار بنى جحش ودار بنى مَظْعُون، ودار بنى البَكِير. هجرها سكانها رجالاً ونساءً، وكباراً وصغاراً.

(١) الحلق : مجالس القوم وحلقاتهم.

ذكر ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، مروا وهم مُصْعِدُونَ إلى أعلى مكة، بدار بنى جحش، فنظر إليها عتبة تَخْفُقُ أبوابها يَبَابًا ليس فيه ساكن! فلما رآها كذلك تنفس الصُّعْدَاءُ ثم قال: وكل دار وإن طالَّت سلامتها يومًا ستدرکہا النُكْبَاءُ والحوْبُ ثم قال: أصبحت دار بنى جحش خلاءً من أهلها! فقال أبو جهل، وهو يشير إلى العباس: هذا عمل ابن أخى هذا.. فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا!

وما زال المسلمون يتلاحقون بالمدينة، حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، وإلا من اعتقل مُكْرَهَا من مفتون أو محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج؛ وهم المستضعفون الذين قال الله فيهم: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عَفْوًا غَفُورًا^(١).

الأنصارُ يؤوون المهاجرين

ونزل المهاجرون من أهل مكة على إخوانهم من أهل المدينة فأوَّوهم وآسَّوهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وأنزلوهم من

(١) سورة النساء آيتا ٩٨، ٩٩.

نفوسهم منزلة الأهل والعشيرة، وتوزع الأنصار فيما بينهم إخوانهم المهاجرين؛ فنزل أصحاب الأسر منهم على أصحاب الأسر، ونزل الأعزب على سعد بن خَيْثَمَة - فيما يقال - لأنه كان عزبًا.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد بقى بمكة، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة. وكان أبو بكر كلما أراد الهجرة، استمهله رسول الله وقال له: «لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا»! فأدرك أبو بكر أن الرسول على نية الهجرة، ولكنه ينتظر الإذن له فيها؛ فاشترى راحلتين فاحتبسهما في داره وجعل يعلفهما ويُعدهما لهذه الهجرة.

قريش تأتمر بالرسول

وتوجست قريش خيفة من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فقد صار أصحابه فيها كثرة يُحسب حسابها. وكان لا بد لها من عمل سريع حاسم، تقضى به على أسباب هذا الخوف الذى يُقَضُّ مضجعها، وتتخلص به من هذا العدو الذى يتفاقم خطره يومًا بعد يوم..

قال ابن إسحاق: «ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم.. عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا

وأصابوا منهم مَنعة؛ فحذروا خروج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا في دار الندوة، يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه..

فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأى فيما بينهم..
أيحبسونه في الحديد ويغلقون عليه بابًا، ثم يترصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء..؟ ولكن هذا الرأى لم يلق سميعة؛ فقد خافوا أن يأتى إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار، فيخلصوه وينزعوه من بين أيديهم.. أخرجونه من ديارهم ثم يتركونه يذهب حيث شاء..؟ ولكن هذا الرأى كذلك لم يلق سميعة؛ فقد خافوا حلاوة منطقته وسحر بيانه وقدرته على اجتذاب القلوب، أن تجعل له أنصارًا في كل مكان يذهب إليه، فينتشر أمره ويشتد ساعده، ثم يكون هو ومن يناصره قوة تهدد أمنهم وطمأنينتهم.. أيقتلونه؟.. ولكن كيف يقتلونه وقد حاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه؟ ومن أى قبيلة يمكن أن يكون هذا القاتل؟ وأى قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بنى عبد مناف؟.. ومازالوا يقدرون ويدبرون، ويتبادلون وجوه الرأى فيما بينهم، حتى اتفقوا على أن يقتلوه بطريقة مأمونة العاقبة.. ذلك أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدًا شجاعًا، ثم يذهبوا إليه فيضربوه جميعًا بسيوفهم - ضربة رجل واحد - فيقتلوه، فيتفرق

بذلك دمه في القبائل كلها، وإذن لا يستطيع بنو هاشم أن يقاتلوا العرب جميعاً، فيرضون بالدية، فيؤدونها إليهم. وبذلك ينتهي أمر محمد ودينه، وتعود مكة إلى ما كانت عليه من الأمن والطمأنينة والشمل الجميع.

الرسول يرسم خطته للخروج من مكة

وهكذا دبّروا الخطة ورسموا خطوطها، على أن ينفذوها ليلاً. ولكن الله تدبيراً فوق تدبيرهم، ويداً فوق أيديهم. فقد أوحى الله إلى رسوله بما دبّروا له من كيد، وأذن له في الهجرة إلى المدينة؛ فجعل صلى الله عليه وسلم يدبر لنفسه خطة الخروج، وحرص كل الحرص على ألا يتسرب أمرها إلى قريش. وقدّر رسول الله أن قريشاً ستحصر داره في الليل، لتقطع عليه طريق الفرار. فإذا استطاع أن يفر منها فإنها - ولا شك - ستنبش أرض مكة كلها بحثاً وراءه، وستقتفى أثره حيثما ذهب، وسترصد أفواه الطرق ومنافذ السير حتى لا يستطيع الخروج منها، وستبذل في ذلك كل ما تستطيع من جهد. فإذا أعجزها العثور عليه بعد ذلك كله، غلبت على أمرها واستسلمت لليأس، حتى إذا استيقنت أنه قد فاتها إدراكه، هدأت ثأثرتها وكفت عن طلبه وتبعه.

وعلى هذا الأساس رسم رسول الله ﷺ خطته؛ فأوحى إلى

ابن عمه عليّ أن يبيت على فراشه تلك الليلة، وأخبره بما كان من عزمه على الهجرة، وأمره أن يتخلف عنه حتى يؤدي ما عنده من الودائع إلى أصحابها وكان - صلى الله عليه وسلم - موضع الثقة من أهل مكة جميعاً، فكانوا يحفظون عنده ودائعهم وما يخافون عليه من أشياءهم، لما كانوا يعرفون من صدقه وأمانته. ثم ذهب، صلى الله عليه وسلم، إلى أبي بكر في داره، ليخبره بأن الله قد أذن له في الهجرة، وليتخذ صاحباً له في هجرته، وليتفقا معاً على ما ينبغي عمله لترتيب خطوات السير، حتى تكون مأمونة العاقبة.

روى ابن إسحاق عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشيّة»^(١) حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة^(٢)، في ساعة كان لا يأتي فيها. (قالت): فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث! (قالت): فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريسه؛ فجلس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وليس

(١) عشيّة: أي لم يكن بقوته ذلك قط.

(٢) الهجرة: في وقت الظهر.

عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أخرج عني مَنْ عندك!» قال: «يا رسول الله إنما هما ابنتاي.. وماذاك؟ فذاك أبي وأمي» قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة». (قالت): فقال أبو بكر: «الصحبة يا رسول الله!» قال: «الصحبة». (قالت): فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم، أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي..! ثم قال: «يا نبي الله، إن هاتين راحلتين كنت أعددتها لهذا..» فاستأجرا عبد الله بن أُرَيْقُط - رجلاً من بني الدُّثِل بن بكر، وكان مشركاً - يدهما على الطريق، ودفعاً إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما».

وكانت الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ وأبو بكر، أن يخرجوا ليلاً إلى «غار ثور» وأن يختفيا في ذلك الغار مدة، حتى ينظروا ما يكون من حال القوم في شأنهما.. حتى إذا هددت العاصفة وكف الطلب عنهما، أخذوا في السير إلى المدينة من طريق غير الطريق المألوف. وكان لا بد لهما من دليل حاذق يهديهما في مسالك الصحراء الواسعة، ويأخذ بهما آمن طريق وأبعده عن عيون القوم، فاختاراً لذلك عبد الله بن أُرَيْقُط، وواعده أن يوافيهما بعد ثلاث ليال عند «غار ثور».

غار ثور

وغار ثور كهف بأعلى جبل «ثور»؛ وهو جبل عال ذو قمتين، على ثلاثة أميال من جنوب مكة، في طريق المنحدر منها إلى اليمن، يمشی السائر إليه نحو ساعتين في طريق لين كثيف الرمال، ثم يصعد فيه صعودًا هينًا حتى يصل إلى قته القريبة؛ فإذا وصل إليها، مشى قليلًا في طريق ممد سهل كأنه برزخ؛ ثم يأخذ في الصعود إلى القمة الأخرى، في مُرتقى وعمر شديد الانزلاق، كثير المضايق والصخور، فلا يزال كذلك يبذل من جهده وقوته، ويستعين بكل خبرته وحِذقه، حتى يصل إلى الغار عند القمة فيجده كهفًا ضيقًا لا تزيد مساحته على مترين ونصف متر، رابضًا تحت صخرة ضخمة تغشى جوفه بظلمة خفيفة؛ له فتحتان: فتحة ضيقة في جانب منه، وأخرى في جانب آخر لا تزيد سعتها على نصف متر، وهي التي يستطيع الداخل أن يدخل منها بغير مشقة كبيرة.

فتيان قريش يرصدون دار النبي

وفي تلك الليلة بات فتيان قريش يرصدون دار النبي ﷺ ليقتلوه عند خروجه؛ فليس من عادة العرب أن يقتلوا شخصًا في عُقر داره. وبات على بن أبي طالب في فراش النبي ﷺ،

وتغشى ببردِهِ الحَضْرَمَى الأخضر؛ وجعل القوم كلما نظروا من
خصاص الباب رأوا عليًا، فظنوا أنه رسول الله فاطمأنوا.

فلما تنفس الصبح وانكشف الظلام، قام النائم عن فراشه،
فإذا هو على بن أبي طالب؛ فجئن جنونُ القوم وطار صوابهم،
وأحدقوا بعليّ ينهرونه ويتجاذبونه، ويسألونه عن محمد أين ذهب
وأين اختفى؛ فيقول عليّ في هدوء: «لا أدري! أمرغوه بالخروج
فخرج...» فجعلوا يضربونه ويؤشونه بأيديهم وعصيهم، ثم
أخرجوه إلى المسجد فحبسوه هناك، واجتمع القوم عليه يحاولون
بكل وسيلة أن يعرفوا منه مكان النبي فلا يستطيعون. فلما
استياسوا منه أطلقوه، وتفرقوا يبحثون في كل مكان، ويُنقبون في
كل فيج، ويسألون كل غاد ورائح، ويقطعون الأرض شرقًا وغربًا
وشمالًا وجنوبًا، ويتتبعون آثار الأقدام في كل طريق. وخرج
الغضب والغيط بهم عن أطوارهم فجعلوا يتخبطون فيما يفعلون.

روى ابن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت:
«لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضى الله
عنه، أتانا نفر من قریش فيهم أبو جهل بن هشام؛ فوقفوا على
باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي
بكر؟ (قالت): قلت: لا أدري والله أين أبي! (قالت): فرفع

أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدى لطمة طريح
منها قُرطى!«.

لم يكن الفرار أمرًا سهلاً

أما رسول الله ﷺ فقد فاتهم، وتسلسل هو وأبو بكر في
جُحِّ الظلام فاخْتَفيا في غار ثور؛ وحفظ الله رسوله من عيون
القوم فلم يبصروه. على أن الفرار من هذا العدو المتريص
الحانق، لم يكن أمرًا هينًا، ولم يكن الخروج في تلك الليلة
مأمون العواقب؛ فقد كان، صلى الله عليه وسلم، يعلم أن قريشًا
سترصده بكل طريق، وستتبع أثره حيثما ذهب، فكان عليه أن
يأخذ حذرَه في كل خطوة.

قال ابن إسحاق: لما أجمع رسول الله، صلى الله عليه
وسلم، الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجوا من خَوْخَةٍ^(١)
لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور فدخلا،
وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر، أن يتسمع لهما ما يقول
الناس فيها نهارًا، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم
من الخبر؛ وأمر عامر بن فُهَيْرَة - مولاه - أن يرعى غنمه
نهاره، ثم يُريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار.

(١) الخوخة: باب صغير في البوابة الكبيرة يدخل الناس منه ويخرجون.

وذكر صاحب الدر المنثور فيما رواه دجلان أنه، صلى الله عليه وسلم، مشى ليلة على أطراف أصابعه، لثلا يظهر أثر رجله على الأرض، حتى خفيت قدماه؛ وأنه لم يُصِيب الغار حتى تقطرت قدماه دما.

كذلك روى أن أبا بكر، رضى الله عنه، كان - وهما في طريقهما إلى الغار - يمشى تارة خلف النبي وتارة بين يديه، وأن النبي، صلى الله عليه وسلم، سأله في ذلك، فقال: «يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد^(١) فأمشي بين يديك».. وكان أبو بكر يبدى من مظاهر المحافظة والحرص على رسول الله، ما يدل على صدق إيمانه وعظيم إخلاصه وشدة محبته، وما يدل كذلك على مبلغ ما كان يحيط بهما من المخاوف والأخطار.

ونستطيع أن نتصور بعض ما كان في هذه الرحلة من مصاعب ومخاوف، إذا تصورنا رجلا واحداً قد وقفت له مدينة بأسرها تقاومه وتطارده، وقد أجمعت رأيها على الفتك به والخلاص منه، غير عابئة بما هنالك من قيود أو تقاليد. فكم يلاقى هذا الطريد الوحيد من عنت الفرار ومخاوفه، إذا أراد أن يفر بنفسه من هذا الحصار، وهو أينما تلفت وجد عدواً، وحيثما

(١) الطلب: من يطلب الشخص من ورائه. والرصد: من يرصد له من أمام.

توجه توقع خطرًا يهدد حياته؟.. إذا استطعنا أن نتخيل هذه الصورة، تسنى لنا أن ندرك بعض ما عاناه الرسول ﷺ وصاحبه من العنت، وهو يحاول الخروج من مكة والوصول إلى الغار في تلك الليلة. ولكن الله جلت قدرته حمى رسوله منهم، وطمس على أبصارهم فلم يبصروه ولم يعرفوا مكانه.

الرسول وصاحبه في الغار

وظل رسول الله ﷺ هو وصاحبه في الغار ثلاث ليال، يتسقطان أخبار القوم، ويرقبان ما يكون من حالهم في حركتهم وسكونهم، وثورتهم وهذوثهم.

«وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأترون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيها إذا أمسى فيخبرها الخبر. وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - يرعى نهاره في رُغَيَّان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليها غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا؛ فإذا غدا عبد الله ابن أبي بكر من عندهما إلى مكة، أتبع عامرُ بن فهيرة أثره بالغنم يُعَقِّ عليه.. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنها الناس، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببيعيرهما وبعير له»^(١).

(١) ابن إسحاق.

وقد أجل ابن عباس مواقف هذه المرحلة من مراحل الهجرة في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يُكْرِ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِثَبُوتِكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُوكَ، وَيُكْرُونَ وَيُكْرُونَ﴾ والله خير الماكرين^(١).. وذلك إذ يقول - فيما رواه عنه الإمام أحمد - : «تساورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوئاق - يريدون النبي صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم : بل اقتلوه. وقال بعضهم : بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات على فراش النبي، صلى الله عليه وسلم، وخرج النبي حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً، يحسبونه النبي، صلى الله عليه وسلم. فلما أصبحوا ثاروا عليه، فلما رأوا علياً رد الله عليهم مكرهم، فقالوا : أين صاحبك يا هذا؟ فقال : لا أدري ! فاقتفوا أثره. فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فثروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت على بابه. فكث فيه ثلاث ليال». قال ابن كثير : هذا إسناد حسن، وهو أحسن ما روى في قصة الغار.

الرسول مطمئن إلى رعاية ربه

ومع ما كان في هذه المرحلة العصبية من مخاوف؛ فإن

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠.

رسول الله ﷺ ظل ثابت الجأش مطمئن الخاطر، تغمره السكينة والطمأنينة، ويملاؤه اليقين بأن الله يرعاه ويحوطه، وأن قريشًا لن تنال منه منالًا، مهما دبرت له من كيد، ومهما استعانت بمالها من الخبرة والقوة والمكانة. فقد رَوَى الرواة أن فتيان قريش لما وصلوا إلى الغار وسمع أبو بكر دبيب أقدامهم إزاءه، اشتد خوف أبي بكر على حياة الرسول حتى بكى، وقال: «يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا!» فهذا رسول الله ﷺ من رَوْع أبي بكر. وقال له: «لا تحزن، إن الله معنا! ما ظنك بأتين الله ثالثهما؟».

ولم تكد تمضى الثلاثة الأيام، حتى كانت قريش قد يشت من العثور على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأيقنت أنه قد أفلت من يديها، وأخذ في طريقه إلى أصحابه بالمدينة؛ فكفت عن البحث عنه في مكة وما حولها، ووجهت اهتمامها إلى طريق المدينة، فأرسلت بعض فتيانها إلى هناك، وأذاعت في أهل السواحل أن من يأتيها بمحمد أسيرًا أو قتيلا فله مائة ناقة.

الهجرة إلى المدينة

بدأ النبي رحلته إلى المدينة حين يئست
قريش من وجوده بمكة

لم تكن قريش تقدر قط أن محمداً سَيُفْلِتُ من يديها، وأنها
سُتُخَفِقُ في العثور عليه بعدما بذلت في البحث عنه كل جهد
ممكن. فقد أمضت الأيام الثلاثة الأولى من اختفائه وهي قائمة
قاعدة، باحثة منقبة، قد أسهرت ليلها، وأشقت نهارها،
وأقضت مضاجعها، ودست أنوفها في كل مكان تتشمم ريحه،
وأرسلت خبراءها في كل ناحية يتلمسون آثاره ويتنسمون
أخباره... ولكنها على رغم ذلك لم تظفر من جهودها بباطل.
فلما انقضت الأيام الثلاثة وهي على هذه الحال من الثورة
والاضطراب، ومن الجهد الدائب الخائب، استولى عليها اليأسُ
وقلَّ عزمها الإخفاق؛ فكفت عن البحث، وأيقنت أنه من
المستحيل أن يكون قد بقي في مكة حتى الآن.

وهذا ما قدّره رسول الله ﷺ وبني عليه خطته؛ فإنه ظل

رابضاً في الغار يرقب الحوادث عن كئيب، حتى تبين له أن قريشاً قد يثست من وجوده بمكة، وأنها كفت عن طلبه وتتبعه فيما حوالها. فلما أيقن أن قد هدأت العاصفة، وسكنت الثورة، ولاحت الفرصة للخروج، أخذ في تنفيذ باقي خطته؛ فجاء الدليل في ميعاده، ومعه راحلتها وراحلة أخرى قد أعدها لنفسه؛ وأخذ الجميع أهبتهم لرحلة طويلة شاقة.

قال ابن إسحاق: «فلما قرب أبو بكر، رضى الله عنه، الراجلتين إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدم له أفضلهما ثم قال: «اركب، فذاك أبي وأمي!» فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إني لا أركب بعيراً ليس لي». قال: «فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي!» قال: «لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟» قال: «كذا وكذا». قال: «قد أخذتها به». قال: «هي لك يا رسول الله». فركبا وانطلقا، وأردف أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، عامر بن فهيرة - موله - خلفه، ليعدهما في الطريق».

وكانت أسماء بنت أبي بكر قد أتتها بسفرة من الطعام يتبّلغان بها في سفرهما، قد وضعتها في جراب؛ ولكن الوقت أعجلها أن تجعل للسفرة عصاً^(١) تعلقها به في الرحل. فلما

١٠ (١) عصاً: علاقة.

أرادت أن تعلقها، لم تجد غير نطاقها الذي تشدّ به وسطها، فشقت نصفين، فعلقت السفرة بشق منه وتنطقت هى بالشق الآخر؛ فسُميت « ذات النطاقين » من أجل ذلك.

النبي يلقي على مكة نظرة وداع حارة

وانطلق الراكب يسير باسم الله حين أرحى الليل سدوله؛ وكان القمر هلالاً فى مستهل ربيع الأول، فلم يلبث أن اختفى بُعيد الغروب، وكسا الظلام مناظر البادية فحجبها عن العيون. وحين أخذ الراكب وجهته إلى المدينة، نظر رسول الله ﷺ إلى مكة نظرة وداع حارة، ثم قال: « والله إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب أرض الله إلى الله، وأكرمها على الله.. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت »..! وفى رواية أنه قال: « والله إنك لأحب أرض الله إلىّ، وأحب أرض الله إلى الله.. ولولا أن أهلك أخرجوني منك قهراً ما خرجت »..! وفى رواية أخرى أنه قال: « اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إلىّ، فأسكني أحب البلاد إليك »..! ومهما تختلف الروايات، فإنها كلها مجمعة على أنه كان وداعاً حاراً، يقطر حُباً وحناناً إلى هذا الوطن الحبيب، ويفيض حسرة وأسى على فراقه.

الدليل يتحرى مواضع الأمان فى الطريق

ولما فصلت العير، جعل الدليل يتحرى مواضع الأمان، ويتبعد عن مسالك الخوف جهده، فلم يسلك الطريق المألوف مُصْعِدًا إلى الشَّمال، بل سار منحدرًا إلى الجنوب أسفل مكة، موليًا وجهه نحو اليمن، ثم توجه مُشرِّقًا إلى تهامة، حتى إذا اقترب من شاطئ البحر وبعد عن الطريق المألوف، اتجه شمالا فى محاذاة الشاطئ، وهو حريصٌ أشد الحرص على أن يتبعد عن العيون ما استطاع.

ويقول ابن سعد فى الطبقات: «إن عبد الله بن أريقط أخذ بهم فى السير وهو يرتجز». ولعل هذا كان نوعًا من التضليل، أريد به ألا يَقْطُنَ إليهم أحد من القوم؛ فإن الذى يرتجز ويعلن عن نفسه فى السير، لا يمكن أن يكون هارِبًا. وقد استمروا يسيرون طوال ليلتهم وشرطًا من النهار حتى تعبوا.

روى البخاى بسنده عن أبى بكر، رضى الله عنه، قال: «أخذ علينا بالرَّصْد^(١) فخرجنا ليلا، فأحْشَنا^(٢) ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة، ثم رُفِعَتْ^(٣) لنا صخرةٌ فأتيناها ولها شيء من

(١) أحاط بنا الرقباء والعيون.

(٢) رفعت: ظهرت لنا.

(٣) فأحشنا: أسرعنا.

الظل. (قال) : ففرشت لرسول الله فروة معى، ثم اضطجع عليها، صلى الله عليه وسلم، فانطلقت أنفُضُ^(١) ما حولها؛ فإذا أنا براع قد أقبل في غُنيمة^(٢)، يريد من الصخرة مثل الذى أردنا فسألته : لمن أنت يا غلام؟ فقال : أنا لفلان. فقلت له : هل فى غنمك من لبن؟ قال : نعم. قلت له : هل أنت حالب؟ قال : نعم. فأخذ شاة من غنمه، فقلت له : أنفُض الضرع. (قال) : فحلب كُثبة^(٣) من لبن. ومعى إداوة^(٤) من ماء عليها خِرقة، قد ورَّأتها^(٥) لرسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فصبيت على اللبن حتى يَرَدَ أسفله، ثم أتيت به النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت : اشرب يا رسول الله. فشرب، صلى الله عليه وسلم، حتى، رضيت. ثم ارتحلنا والطلُبُ فى أثَرنا.

قريش تفرض مكافأة مغرية لمن يأتيها بمحمد

وكانت قريش - حين فاتها رسول الله ﷺ - قد جعلت مائة ناقة لمن يأتيها به أسيراً أو قتيلاً، وأرسلت بذلك فى أهل السواحل؛ فأغرى ذلك ذوى المطامع من أهل البادية، بتتبع رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكان من هؤلاء سراقَة

(١) أنفُض : أبحث وأنقصى.

(٤) إداوة : سقاء للماء.

(٢) غنيمة : غنم قليلة.

(٥) ورأتها : شدتها بها وربطتها عليها.

(٣) كُثبة : قليلاً.

ابن مالك بن جُعْشَم - رجل من بنى مُدَلِج النازلين بِقُدَيْد،
بالقرب من شواطئ رابغ - وكان قد علم أن نفرًا ثلاثة قد مروا
على رواحلهم بقرب الشاطئ؛ فاعتقد أنهم محمد وأصحابه،
فتتبع أثرهم يريد أن يأق بهم قريشًا طمعًا في الجائزة.

وقد روى البخارى بسنده عن ابن شهاب ما حدث سراقه
عن نفسه، فيما كان من أمره ذاك، فقال: «جاءنا رسل كفار
قريش، يجعلون في رسول الله وأبى بكر، دية كل واحد منهما،
لمن قتله أو أسره. فبينما أنا في مجلس من مجالس قومي بنى
مُدَلِج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال:
يا سراقه، إني رأيت أنفًا أسودَةً^(١) بالساحل، أراها^(٢) محمدًا
وأصحابه. قال سراقه: فعرفت أنهم هم. فقلت له: إنهم
ليسوا بهم؛ ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا^(٣). ثم
لبثت في المجلس ساعة، ثم قت فأمرت جاريق أن تخرج بفرسى
- وهى من وراء أكمة - فتحبسها على. وأخذت رمحى
فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه^(٤) في الأرض
وحفقت عاليه، حتى أتيت فرسى فركبتها، فدفعتها فصرّت بى
حتى دنوت منهم؛ فعثرت بى فرسى فخررت عنها، فقممت

(١) أسودة: أشباحًا سوداء.

(٢) أراها: على مشهد منا.

(٣) بأعيننا: أظنها.

(٤) الزج: الحديدية فى أسفل الرمح.

فَأَهْوَيْتَ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي^(١) فَاسْتَخْرَجْتَ مِنْهَا الْأَزْلَامَ، فَاسْتَقْسَمْتَ بِهَا: أَضْرَهُمْ أَمْ لَا؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهَ؛ فَرَكِبْتَ فَرْسِي وَعَصِيْتَ الْأَزْلَامَ. فَجَعَلَ فَرْسِي يُقَرِّبُ بِي، حَتَّى إِذَا سَمِعْتَ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يَكْثُرُ اللَّاتِفَاتِ - سَاحَتْ يَدَا فَرْسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغْتَا الرِّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَأَهْوَيْتُ؛ ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَهَضَمْتُ، فَلَمْ تَكُدْ تَخْرُجْ يَدِيَا.. فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدِيَا غَبَارٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلَ الدِّخَانِ؛ فَاسْتَقْسَمْتَ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهَ، فَنَادَيْتُهُم بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتَ فَرْسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ. وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنَّ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ قَوْمُكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ؛ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يَرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ؛ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، فَلَمْ يَرُدُّانِي، وَلَمْ يَسْأَلَانِي، إِلَّا أَنْ قَالَا: أَخْفِ عَنَّا.. فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ؛ فَأَمَرَ عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ، فَكْتُبَ لِي فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدَمَ. ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) الكِنَانَةُ: جَعْبَةُ السَّهَامِ.

أم معبد

وانطلق الركب يسير إلى غايته، والمطايا تحبُّ بهم وتَضَع^(١) وهم معمّنون في غمار الصحراء المترامية، صابرون على حرها المحرق وقيظها الملتهب؛ مستسلمون لكل ما يجري به القضاء، مؤمنون بأن القضاء لا يجري إلا بخير. وكلما أرهقهم السير نزلوا منزلاً فاستراحوا، وتلمسوا من الحىّ المقيمين عند منزلهم، ما عسى أن يكون لديهم من طعام أو شراب؛ حتى مروا في طريقهم بأم مَعْبَد الخزاعيّة. وهى أعرابية كريمة، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرجال، فتطعم وتَسْقِي من يمر بها من السيارة. فلما نزلوا عندها سألوها تمرّاً أو لحماً يشترّون منه، فلم يصيبوا عندها شيئاً، وقالت وهى تبتدى أسفها لهم: «والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرَى وما كنتم إذن بحاجة إلى أن تسألوا شيئاً أو تدفعوا ثمناً». . . وكانت السنة مجدبة، والبادية في قحط شديد.

قال ابن سعد روايةً عن أبي معبد الخزاعى: «فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كِسْر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: «هذه شاة خلفها الجَهْدُ^(٢) عن الغنم». فقال:

(١) الجهد: الضعف والإعياء.

(٢) تحب: تسرع وتبذل.

«هل بها من لبن؟» قالت : «هى أجهد من ذلك» قال :
«أتأذنين لى أن أحلبها؟» قالت : «نعم - بأى أنت وأمى -
إن رأيت بها حلبًا» ! فدعا، صلى الله عليه وسلم، بالشاة،
فمسح ضرعها وذكر اسم الله، وقال : «اللهم بارك لها فى
شاتها» ! (قال) : فَتَفَاجَتْ^(١) وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ؛ فدعا بإناء يُرْبِضُ
الرَّهْطَ^(٢)، فحلب فيه ثَجًّا^(٣) حتى غَلَبَهُ الثَّمَالُ^(٤) فسقاها فشربت
حتى رَوَيْت، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا، وشرب صلى الله عليه
وسلم آخرهم، وقال : «ساقى القوم آخرهم». ثم حلب فيه ثانيًا
عَوْدًا على بَدْء، فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها. فَقَلَّمَا لَيْثٌ أَنْ
جاء زوجها أبو معبد يسوق أُعْتَرَا عَجَافًا؛ فلما رأى اللبن عجب
وقال : من أين لكم هذا، والشاةُ عَازِيَةٌ^(٥) ولا حَلْوَبَةٌ فى
البيت؟ قالت : لا والله، إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك، كان من
حديثه كيت وكيت. قال : والله إني لأُرَاهُ صاحب قريش الذى
يُطَلَّب. صفيه لى يا أم معبد»..

فجعلت أم معبد تصف له ما بهرها منه، صلى الله عليه
وسلم، من كمال الطلعة وجمال الهيئة، ووقار السُّنْتِ وعظمة

(١) فتفاجت : فتحت ما بين أرجلها ودرت باللبن.

(٢) يربض : يشبع الجماعة.

(٤) الثمال : الرغبة.

(٣) ثَجًّا : لبنًا غزيرًا.

(٥) عازية : غائبة عن البيت.

الخلق، وسلامة المنطق وعذوبة الحديث، وسماحة النفس وطلاقة الوجه، وشدة الهيبة وجلالة المظهر.

قال: «هذا والله صاحبُ قريش، الذي ذكر لنا من أمره ما دُكر! ولو كنت وافقته يا أم معبد، لالتصمت أن أصحبه. ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا...!»

ويقول الرواة: إن فتيان قريش مروا بأم معبد، فسألوها عن رسول الله ﷺ فأشفقت عليه منهم؛ فتعاجت^(١) عليهم وقالت لهم: «إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامي هذا».

الأنصار يترقبون مقدم النبي

وكان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من مكة؛ فكانوا يتحرقون شوقاً إلى لقائه، ويخرجون في صبح كل يوم يترقبونه في بعض الطريق، حتى يؤذيهم الحر وتحرقهم الشمس، فيعودوا إلى منازلهم.

روى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عوف قال: «حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتوَكَّفنا^(٢) قدومه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتْنا، ننتظر

(١) تعاجت: تظاهرت بجهل ما يسألونها عنه.

(٢) توَكَّفنا: توقعنا.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا؛ وذلك في أيام حارة. حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا؛ فصرخ بأعلى صوته: «يا بني قَيْلَةَ»^(١) هذا جدُّكم^(٢) قد جاء..! «(قال): فخرجنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر، رضى الله عنه، في مثل سنِّه؛ وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك. وركبه الناس^(٣) وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظلُّ عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك»..

النبي في قباء

وأكثر الرواة على أن رسول الله ﷺ بلغ المدينة يوم الاثنين، لاثني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، للسنة الرابعة عشرة من

(١) بنى قيلة: كانت هذه كنية العرب في المدينة.

(٢) جدكم: حظكم وطالكم.

(٣) وركبه الناس: تراحوا عليه.

الْبَعْثَةِ، الموافق ٢٨ من يُونِيَّة سنة ٦٦٢ من المِلَاد، وأنه تَوَجَّه إلى قُبَاء^(١)، فنزل على كُثُوم بن الهُدْم، شيخ بنى عمرو ابن عوف؛ وأنه أقام في بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس؛ ثم خرج في ضُحَى يوم الجمعة إلى المدينة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ في قُبَاء، أن أسس مسجدًا هناك، فكان أول مسجد بنى في الإسلام. وقد عمل فيه صلى الله عليه وسلم بيده، وشارك أصحابه في حمل الحجارة والصخور، حتى كان يبدو عليه الجهد. وقد رغب إليه أصحابه أن يَكْفُوهُ ذلك بأنفسهم، فأبى إلا أن يكون واحدًا منهم.

روى الطَّبْرَانِي بسند رجاله ثِقَات، عن الشَّيْثَانِ بنت النِّعْمَان، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: «نظرتُ إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين قَدِمَ، فنزل وأسس المسجد - مسجد قُبَاء - فرأيتُه يأخذ الحجر والصخرة حتى يُصْبِهُهُ^(٢) الحجر؛ فيأقِي الرجل من أصحابه فيقول: «يارسول الله، بأبى أنت وأُمى، تعططيني أكْفِكَ!» فيقول: «لا، خذ مثله... حتى أسسه».

ويقول كثير من المفسرين: إن في هذا المسجد نزل قول الله

(١) قُبَاء: ضاحية في جنوب المدينة على بعد ثلاثة أميال منها.

(٢) لعل المراد أن الحجر لضخامته كان يغالبه ويجذبه إليه من ثقله.

تعالى : ﴿لَسَجِدُ أُسَسَّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ؛ فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(١).

المدينة تحتفل بمقدم النبي

وكان يوم دخول رسول الله المدينة يومًا حافلًا، لم تر المدينة يومًا أشد فرحًا وابتهاجًا منه؛ فقد ازدانت المدينة وأشرقَت جوانبها بالبهجة والسرور؛ ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد؛ ووقفت رباتُ الخدور من النساء على سطوح المنازل، يَسْتَشْرِفْنَ رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، وهَلَّلَ الصبيان يصيحون في فرح وابتهاج : «جاء رسول الله... ! جاء رسول الله... !» وجعل الإماء والجواري يُنْشِدْنَ ويغْنَيْن ويضربن بالدفوف، والحبشة تلعب بجراهبها، فرحًا بقدومه، صلى الله عليه وسلم.

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال : «إني لأسعى في الغلمان يقولون : «جاء محمد!» فأسعى ولا أرى شيئًا.. ثم يقولون : «جاء محمد!» فأسعى ولا أرى شيئًا.. حتى جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصاحبه أبو بكر، فكُنَّا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلا من أهل البادية

(١) سورة التوبة الآية ١٠٨.

يُؤَذِّنُ بِهِمَا الْأَنْصَارَ؛ فَاسْتَقْبَلَهُمَا زَهَاءُ خَمْسَائَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهَا؛ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: انْطَلِقَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ وَصَاحِبَهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَخَرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، حَتَّى إِنْ الْعَوَاتِقُ^(١) لَفَوْقَ الْبُيُوتِ يَتَرَاءَيْنَهُ، يَقْلُنَ: «أَيُّهُمْ هُوَ؟ أَيُّهُمْ هُوَ؟».. ثَمَا رَأَيْنَا مَنْظَرًا شَبِيهَا بِهِ.

وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ بِسَنَدٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: وَخَرَجَ النَّاسُ حِينَ قَدَمْنَا الْمَدِينَةَ فِي الطَّرِيقِ وَعَلَى الْبُيُوتِ، وَالْغُلَّامَانِ وَالْخُدَمُ يَقُولُونَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ..! اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ مُحَمَّدٌ..! اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ..!».

وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمَدِينَةَ جَعَلَ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانَ وَالْوَلَدَانِ يَقْلُنَ:
 طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ^(٢)
 وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ
 أَيُّهَا الْمُبْعُوثُ فِينَا جِثَّتْ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعُ
 وَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ، رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاقَتَهُ الْقَصُوءَ، فِي مَوْكِبٍ حَافِلٍ، وَالْمُسْلِمُونَ يَحِيطُونَ بِهِ مَشَاةً وَرُكْبَانًا، وَقَدْ تَقَلَّدُوا

(١) العواتق: الصبايا.

(٢) ثناياا الوداع: منعطف قبل المدينة كانوا يودعون عنده المسافرين.

سيوفهم، وتَحَلَّوْا بأحسن ملابسهم، وعلا وجوههم الزهو والبشر
والابتهاج بمَقْدَم رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقد بلغ من
حرصهم على كرامة رسول الله وتعظيمه، أن كانوا يتزاحون على
زمام ناقته، حتى يَنَازِع أحدهم صاحبه في الوصول إليه والتبرك
به.

وتوجه صلى الله عليه وسلم نحو المدينة؛ فجعل لا يمر بدار
من دور الأنصار إلا اعترضوا طريقه وقالوا: «هَلُمَّ يا رسول
الله إلى القوة والمنعة والثروة!» فيتسم صلى الله عليه وسلم
شاكراً، ويدعو لهم بخير، ثم يقول وهو يشير إلى ناقته: «خَلُّوا
سبيلها فإنها مأمورة».

«وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً، كل دار مَحَلَّةٌ
مستقلة بمساكنها ونخلها وزروعها وأهلها، وكل قبيلة من قبائلهم
قد اجتمعوا في محلّتهم فهم كالقرى المتلاصقة»^(١).

أول خطبة لرسول الله في المدينة

فلما وصل، صلى الله عليه وسلم، إلى دار بنى سالم
ابن عوف، أدركته صلاة الجمعة، فصلاها هنالك في واديهم بمن
كان معه من المسلمين؛ فكانت أول جمعة أقامها، صلى الله عليه

(١) ابن كثير.

وسلم، في الإسلام. وكانت أول خطبة خطبها أن قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فقدموا لأنفسكم، تَعْلُمَنَّ»^(١) - والله - لِيُصْنَعَنَّ أَعْدَكُمْ»^(٢) ثم لَيَدْعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راع؛ ليقولن له ربه، ليس له تَرْجُمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فليَنْظُرَنَّ يَمِينًا وشمالًا فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قُدَامَهُ فلا يرى غير جهنم.. فمن استطاع أن يَقِيَ وجهه من النار ولو بشِقِّ من تمرٍ فليفعل؛ ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجْزَى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْفٍ. والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته.»

الناقة تسير حتى تبرك في موضع المسجد

ثم ركب صلى الله عليه وسلم ناقته؛ فما زالت تسير وقد أرخى لها زمامها، حتى بركت به في مكان مسجده؛ وكان مَرَبِدًا^(٣) لغلامين يتيمين من بني النجار، عند دار أبي أيوب: خالد بن زيد الأنصاري؛ فنزل عنها رسول الله، صلى الله عليه

(١) تعلمن: اعلما.

(٢) يصنعن: الصنع هنا كناية عن الموت حين يأت مفاجئًا لابن آدم.

(٣) المريد: الجرن.

وسلم، وقال: ﴿رب أنزلني مُنزلاً مُباركاً وأنتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(١).. قال ذلك أربع مرات. وأخذ الذي كان يأخذه عند الوحي؛ فلما سَرى عنه قال: «هذا إن شاء الله يكون المنزل».. وأمر أن يُحط رحلُه؛ ثم قال: «أى بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: «أنا يا نبي الله؛ هذه دارى، وهذا بابى»..! قال: «فانطلقْ فهى لنا مَقِيلاً»^(٢) فذهب فهىأه ثم جاء فقال: «يا رسول الله، قد هيات مقيلاً. قوما على بركة الله فقيلاً».

نزل النبي على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه
ونزل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبي أيوب، فأقام عنده حتى بنى مسجده ومساكنه؛ وجعلت الهدايا من الطعام والشراب تتوارد على رسول الله وهو فى دار أبي أيوب. وكانت أول هدية أهديت إليه حين نزل قصعةٌ جاء بها زيد ابن ثابت، فيها خبز مَثْرُودٌ بلبن وسمن؛ فقدمها إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «أرسلت بهذه القصعة أُمى». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بارك الله فيك وفى أملك»! ودعا أصحابه فأكلوا. ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة بها ثريد

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٩.

(٢) مقيلاً: مكاناً نفيل فيه.

وَعَرَّاقَ لَحْمٍ^(١). وجعل بنو النجار يتناوبون حمل الطعام إليه طول مُقامه في دار أبي أيوب؛ فما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة يحملون الطعام، وما كانت تُحْطِئُهُ جَفْنَةٌ سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زُرارة كل ليلة.

وأقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب سبعة أشهر - وقيل: نحو سنة - حتى بنى مسجده ومسكنه، ونزل معه أسامة ابن زيد. وقيل: إن علي بن أبي طالب نزل معه كذلك؛ وكان قد قدم من مكة على رسول الله ﷺ وهو لا يزال بِقُبَاء، بعد أن أدى الودائع عن رسول الله إلى أصحابها؛ ثم خرج من مكة ماشيًا، يسير بالليل ويختفي بالنهار، حتى تورمت قدماه. فلما رآه صلى الله عليه وسلم اعتنقه وبكى، رحمةً لما بقدميه من الورم، ثم أَمَرَ عليهما يده الشريفة فشُفِّيتا بإذن الله، فلم يشتك منها بعد ذلك. أما أبو بكر فقد نزل بالسُّنْح على خُبَيْب بن إِسَاف.

الرسول يبعث في طلب أهله

قال ابن سعد: «وبعث رسول الله ﷺ مولاة زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم؛ فقدمتا عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة

(١) عراق لحم: عظم عليه بقايا من اللحم. قال في اللسان: ولحمها من أطيب

اللحمان عندهم.

زوجته، وكانت رُفِيَّة قد هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان قبل ذلك. وحَبَسَ أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة، فقدموا المدينة، فَأَنزَلَهُمْ فِي بَيْتِ حَارِثَةَ ابْنِ النُّعْمَانِ.

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يرتب في المدينة شئونَه وشئون أصحابه، وينشئ المجتمع المثالي الفاضل، على قواعد من الحب والإخاء، والعدل والمساواة، والتكافل والتعاون، والتضحية والإيثار.. وهى المبادئ التى وضعها الإسلام للمجتمع الصالح؛ ليعيش الناس فى كل زمان ومكان إخوة متعاونين، يسودهم الوئام، ويظللهم الأمن والسلام.

المجتمع الإسلامي

بدأ في المدينة عهد الأمن والاستقرار
فأخذ النبي يضع قواعد المجتمع الصالح

كانت الحفاوة التي استُقبل بها رسول الله ﷺ في المدينة مظهرًا جديدًا، يختلف كل الاختلاف عن المظهر الذي كان يراه في مكة، فقدر ما كان من البغض والاستهانة هناك في مكة، كان من الحب والإكبار هنا في المدينة، فأيقن صلى الله عليه وسلم أن الله قد أذن لدينه بالنصر، وأن العقيدة التي ظل يضع قواعدها ثلاثة عشر عامًا، على أساس الإيمان الصادق بالله وحده، قد آن لها أن تؤتي ثمارها، وأن تظهر آثارها في الفرد والجماعة عملاً صالحاً ينقطع به الفساد ويعم الإصلاح، ويحى به الشر وينتشر الخير. فليس الشأن في العقيدة أن تكون فكرة تستقر في طوايا النفس، وتكن في خفايا الضمير فحسب؛ إنما هي فكرة تهيمن على النفس فتملكها من جميع أقطارها، حتى يندفع صاحبها إلى العمل بها في ظاهر أمره وباطنه، وفي جليله وحقيقه، وفيما يتصل بشئون نفسه أو بشئون غيره؛ سواء في ذلك

قريب الناس ويعيدهم ومن يشاركه في العقيدة أو يخالفه فيها. وليس للعقيدة قيمة قط إذا لم يكن صاحب العقيدة ترجمةً عملية لها، في كل ما يأتي وما يدع، وما يخفى وما يعلن.

لقد انتهى عهد الاضطراب والخوف في مكة، وبدأ عهد الاستقرار والأمن في المدينة؛ فوجب أن يوضع المنهج العملي للمجتمع الجديد، وأن ترسم له خطوط السير في الطريق السوي، حتى يأمن الزلل، ويتق العثار، ويصل إلى الغاية المنشودة. وما الغاية المنشودة إلا أن يعيش الناس في هذه الحياة عيشة فاضلة، تلائم كرامتهم، وتناسب منزلتهم بين الخلائق؛ فقد كرم الله بنى آدم وفضلهم على كثير ممن خلق، وجعلهم خلفاءه في الأرض، وسخر لهم كل ما فيها ليعمروها بالخير والصلاح؛ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه، تنتهي إليه مدتهم في الحياة الدنيا، فينتقلون إلى حياة أخرى أكرم وأسمى.. «ولقد رغب الله بنى آدم كل الترغيب في الحياة الفاضلة الرفيعة، وزهدهم كل التزهيد في الحياة التافهة الوضيعة، وحذرهم سوء المصير إذا حادوا عن الطريق، وانحرفوا مع الأهواء والشهوات»^(١).

(١) فقه السيرة.

الحياة الصالحة كما يريدّها الإسلام

هذه الغاية التي ينشدّها الإسلام، والهدف الذي يرمى إليه من الحياة، فهو لا يريدّها حياة كيفما كانت، إنما يريدّها حياة سامية تليق ببنى الإنسان، وتربّأ بهم عن الهبوط إلى مستوى الحيوان الأعجم، الذي تحكمه شهواته وغرائزه، فيندفع معها بلا إرادة ولا فكر ولا نظر في العواقب.. يريدّها حياة وحدة وارتباط وتآلف، يدين الناس فيها بدين واحد، ويعبدون ربّاً واحداً، ويسكنون وطناً واحداً، هو هذه الأرض التي سخرها لهم، ليعيشوا عليها إخوة متراحين، مثلهم في توادهم وتراحهم «كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».. يريدّها حياة فاضلة كريمة، أساسها التأخى، ومظهرها التراحم، وغايتها السلام.

وعلى هذا الأساس أخذ رسول الله ﷺ يبني المجتمع الإسلامى الجديد ويقيم أركانه؛ وكانت الدعائم التي ركز عليها هذا البناء، هي تنظيم الصلوات التي تحيط بالمسلم، من جميع نواحيه، وهي صلة المسلم بالله وصلة المسلم بالمسلم، وصلة المسلم بغير المسلم.

صلة المسلم بالله أساسها العبودية الخالصة له وحده
فأما صلة المسلم بالله، فهي صلة العبودية الخالصة، التي تقوم على إخلاص الدين له وحده لا شريك له، والاعتقاد بأنه هو رب العالمين؛ وأنه هو الإله الحق، الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، وينفع ويضر، وأنه لا إله غيره تعنو له الوجوه، وتخضع له القلوب، وتتوجه له الأنفس.. وهى صلة مباشرة بين العبد وربه، لا سلطان لأحد عليها، ولا وساطة لأحد فيها؛ فإذا توطدت هذه الصلة بين العبد وربه، كان أول مظاهرها ألا يذل إلا له، ولا يستعين إلا به، ولا يعمل إلا ابتغاء رضوانه.

الصلاة مظهر الصلة بين العبد وربه

ومن هنا كانت الصلاة أول ما فرض من فرائض الإسلام، لأنها أول مظاهر التدين، وأقوى وسائل الاتصال بين العبد وربه. فإن وقوف العبد بين يدى مولاه خاشعاً متذللاً، متجرّداً من كل معانى الحول والقوة، يدعوه ويناجيه، ويستعينه ويستهديه، موقناً أنه هو وحده مصدر النعم، وواهب القوى، ومالك الأمر فى الدنيا وفى الآخرة.. إن وقوفه هذا، على هذه الحال من الضراعة والخشوع، ومن التجرد والشعور بالضعف، ومن التذلل

والابتهاال فى طلب المعونة.. هو لُبّ الدين وحقيقته، وهو سر
العبودية وجوهرها.

ومن أجل هذا كانت الصلاة عماد الدين، وكانت المحافظة
عليها واجبة فى السفر والإقامة، وفى الأمن والخوف، وفى الصحة
والمرض، وكان تكرارها خمس مرات فى اليوم والليلة توثيقاً لهذه
الصلة.

نعم، فإن الإنسان معرض فى حياته لكثير من الصعاب؛
وكثيراً ما تحول قوى الشر بينه وبين ما يبتغيه من الخير، وكثيراً
ما تضطّره ضرورات العيش إلى أن يحيد عن الطريق السوى،
وكثيراً ما تخدعه مغريات الحياة الدنيا فيستجيب لها ويستمرئ
لذائذها. والإنسان بطبعه ضعيف، لا يستطيع وحده أن يقاوم
عناصر الشر وهى كثيرة جذابة؛ فإذا لجأ إلى ربه، ووقف بين
يديه متضرعاً يستمد منه الحول والقوة، وجد منه العون والحماية،
وتضاءلت أمامه القوى مهما عظمت، وانهمزت له عناصر الشر
مهما كثرت. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا حزبه
أمر^(١) فرع إلى الصلاة؛ ولعل هذا هو مَرَمَى قوله تعالى:
﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾^(٢).

(١) حزبه أمر: اشتد به أمر أو أصابه غم.

(٢) سورة البقرة الآية ٤٥.

وفى الصلاة تزكية للنفس وتطهير مستمر، لأنها اتصال دائم بالله عز وجل. ومتى كان العبد دائم الصلاة بربه، فقد أصبح أكثر خشية له من سواه، وأكثر حرصاً على طاعته، وأشد بعداً عن مخالفته؛ فإذا ما خدعه الشيطان فأقدم على ارتكاب إثم، تذكر أنه بعد ساعة أو ساعتين سيقف بين يدي ربه، الذى يعلم السر وأخفى، فيستحى أن يقف بين يديه وهو آثم، فيسارع إلى الاستغفار والتوبة؛ فلا تحضره الصلاة إلا وقد رجع إلى الله تائباً منيباً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾^(١)؛ ولعل هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يفسر هذا لأصحابه بقوله: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات.. هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فكذلك مثلُ الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

والصلاة لقاء محبة وأنس بين العبد وربه، يفرح به المؤمن الصادق كما يفرح الحبيب بلقاء الحبيب، وتهم أشواقه إليه.

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

فلا يزال يسعى له ويستزيد منه. ولن يدرك هذه الحقيقة إلا من غَمَرَ الإيمانُ الصادق جوانب نفسه، حتى صَفَتْ روحُه، ورُقَّت حواشيه، وشَفَّ وجدانه؛ فانكشفت له صورة من جلال الله وكماله، فامتلاً بحبه قلبه، فاتخذ الصلاة وسيلة إلى لقائه، كلما دفعه الشوق إلى هذا اللقاء. ولعل هذا هو تفسير قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»؛ فقد كان، صلى الله عليه وسلم، إذا انتظر الصلاة هَامَتْ إليها أشواقه، فيقول: «أرحنا بالصلاة يا بلال!»! لما كان يجده في الصلاة من الأُنس والانتعاش الروحي بلقاء ربه.

إن الصلاة أقوى صلة بين العبد وربّه، فإذا أحسن العبد هذه الصلة، فقد وضع يده على كنز من القوة لا ينفد، وعلى معين من الأُنس لا يَنْضب، وعلى مدد من الرحمة لا ينقطع. ومن أجل هذا كانت الصلاة أول فرائض الدين، وأكثرها دوراً مع الليل والنهار؛ وكان أول ما اهتم به رسول الله بناء المسجد، لأن المسجد مكان الصلاة، والصلاة عماد الدين. ومن أجل ذلك بَنَى المسجد في قباء قبل أن يدخل المدينة، ولم يكن مُكْتَهً بقباء غير بضعة أيام. فلما دخل المدينة كان أول ما فكر فيه أن يبني مسجده.

مسجد النبي

وكان الموضع الذي بركت فيه ناقته مَرِيدًا لِعَلامِينَ يَتَمِيمِينَ من بَنِي النَجَارِ، فَاخْتَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَانًا لِمَسْجِدِهِ. وَكَانَ فِضَاءً وَاسِعًا يَجِفُّ فِيهِ التَّمَرُ، فِيهِ بَعْضُ أَشْجَارِ مِنَ النَّخِيلِ وَالغَرْقَدِ، وَبَعْضُ قُبُورٍ مَهْجُورَةٍ مِنْ قُبُورِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَبَعْضُ حَفَرٍ قَدْ تَجَمَّعَ بِهَا الْمَاءُ مِنْ نَشْعِ الْأَرْضِ. وَكَانَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ قَدْ اخْتَذَ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنْهُ مَسْجِدًا صَغِيرًا، حَوَّطَهُ بِجِدَارٍ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ عَرِيشًا مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ، فَكَانَ يَصَلِّي فِيهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَلَمَّا قَدِمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يَصَلِّي بِهِمْ فِيهِ أَحْيَانًا، وَأَحْيَانًا يَصَلِّي بِهِمْ فِي غَيْرِهِ.. فَحَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَصَلِّي أَحْيَانًا فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَاسْتَمَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَنَى مَسْجِدَهُ.

النبي يبني المسجد على أبسط الأوضاع

وَشَرَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بِنَاءِ مَسْجِدِهِ، فَأَمَرَ بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ وَالغَرْقَدِ فَقُطِعَتْ، وَبِالْقُبُورِ فَنُبِشَتْ وَغُيِّبَتْ عِظَامُهَا فِي الْأَرْضِ، وَبِالْمَاءِ الْمَتَجَمِّعِ فَسُِّرِبَ فِي الْأَغْوَارِ، ثُمَّ رَدِمَتْ الْحَفَرُ وَسُوِّتِ الْأَرْضُ، وَاخْتَذَ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ عَلَى أَبْطَلٍ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.. فِضَاءً مِنَ الْأَرْضِ طَوْلُهُ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ

ثلاثون، يحيط به حائط من البنيان لا يزيد على قامة الرجل،
أساسه من الحجارة، وحيطانه من اللبن، وله ثلاثة أبواب، باب
من الشرق وباب من الغرب، وباب من الجنوب وهو الخلف؛
وفي ناحية منه أقيمت ظُلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع
النخل، كانت تسمى «الصفَّة»، أما باقى المسجد فقد ترك
مكشوفاً بلا غطاء. وظلت أرض المسجد أرضاً على طبيعتها لم
تفرش بشيء، حتى نزل المطر ذات ليلة، فأصبحت الأرض
مبتلة، فجعل الرجل يأتى بالحصى فى ثوبه، فيسطه تحته ليصلى؛
فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «ما أحسن هذا
البساط»!

ويروى أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبنى المسجد قال:
«ابنوا لى عريشاً كعريش موسى؛ ثُمَامَات وخشَبَات وظُلَّة كظلة
موسى... والأمر أعجل من ذلك»! قيل: وما ظلة موسى؟
قال: «كان إذا قام أصاب رأسه السقف» ومعنى ذلك أن
رسول الله كان لا يبنى من المسجد إلا أن يكون مكاناً صالحاً
لأداء الصلاة وكفى. أما التزيد فيما وراء ذلك من زخرف أو
زينة، فشيء لا ينبغى أن يُضَيَّع فيه وقت؛ لأن العُمَرَ أضيق من
أن يتسع لمثل هذا، وأغلى من أن يُضَيَّع فى مثل هذا.
وكان صلى الله عليه وسلم، يعمل مع أصحابه فى بناء هذا

المسجد، كما كان يعمل معهم في مسجد قباء؛ فكان يحمل الحجارة واللبن حتى يَغْبِرَ صدره، وحتى دفع ذلك بعض الصحابة إلى أن يقول:

لئن قَعَدْنَا والنبيُّ يعملُ لَذَاكَ منا العملُ المضللُّ

فجعل الصحابة ينشدونها ويتغنون بها وهم يعملون. وكان صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يكون واحداً من أصحابه، يعمل كما يعملون، ويُشَدُّ كما ينشدون، ويأخذ بحظه من ثواب الله كما يأخذون، فقد لقيه رجل من أصحابه وهو يحمل لينة فقال: أعطنيها يا رسول الله - يريد أن يخفف عنه - فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: « اذهب فخذ غيرها، فلست بأفقرَ إلى الله مني! »

وكان الجميع يعملون مبتهجين، وهم يرتجزون الأراجيز وينشدونها، تعبيراً عن سرورهم، واعتباطهم بهذا العمل العظيم، الذي يدركون قيمته ويُقدِّرون غايته.

فلما تم بناء المسجد جعله النبي ﷺ مجتمعاً لأصحابه، يصلي بهم فيه، ويخطبهم، ويعلمهم أصول دينهم. وكان يخطب فيهم قائماً مستنداً إلى جذع من جذوع النخل، حتى كبرت سنه وضعف عن القيام؛ فصنعوا له منبراً بسيطاً من الخشب، يتكون من درجتين ومجلس يجلس فوقه، حتى يقوم للخطبة، فيقف على

أدنى الدرجتين ثم يخطب. ولم يكن بالمسجد مصابيح تنيره بالليل؛ فكانوا إذا اشتد الظلام أحضروا بعض الحطب وأشعلوا فيه النار، فاستضاءوا بها حتى يصلوا؛ وما زالوا على هذه الحال، حتى قدم عليهم تميم الدَّارِيُّ من الشام، فأوقد فيه المصابيح وعلقها في سَوَارِي المسجد. فسَرَّ بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال له: «نُورَت مسجَدنا، نُورَ الله عليك»!



وظل المسجد على حاله لم يتغير فيه شيء؛ غير أن رسول الله ﷺ زاد في سعته قليلاً، حين كثر المسلمون بالمدينة وضاق بهم المسجد، فجعله خمساً وثلاثين ذراعاً في خمس وثلاثين، وقيل: خمسين في خمسين، وكان ذلك في السنة السابعة من الهجرة. أما فيما عدا ذلك فقد بقى المسجد على ما كان عليه من البساطة والخشونة، حتى قُبِضَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

مساكن النبي

ثم أخذ صلى الله عليه وسلم في بناء مساكنه إلى جوار المسجد، فبنى حجرتين: إحداهما لزوجه سَوْدَةَ بنت زمعة، والأخرى لعروسه عائشة بنت أبي بكر. فلما فرغ من البناء دخل

بعائشة، وكان قد خطبها وهو في مكة قبل الهجرة بنحو سنتين، ولم يدخل بها إلا بعد هجرته بنحو سبعة أشهر.

ثم جعل صلى الله عليه وسلم، يزيد في مساكنه شيئاً فشيئاً، كلما اتخذ زوجة بنى لها بيتاً، حتى صارت بيوته تسعة. فكان بعضها في الجهة الجنوبية من المسجد، وبعضها في الجهة الشرقية منه، وكان يفصل بينه وبين طريق عرضه خمس أذرع. وكانت مساكنه، صلى الله عليه وسلم، في غاية التواضع والتقشف، يحيطها الخارجي من اللبن، وسقفها من جذوع النخل وجريده، وقواطعها الداخلية من الجريد المكسوّ بالطين ومن المسوّح الصوفية.

الأذان والصلاة

وكانوا إذا جاء وقت الصلاة، نادى منادى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ «الصلاة جامعة»!.. فيجتمع الناس. وقيل: إنهم كانوا يجتمعون لوقت الصلاة بغير دعوة. وكان رسول الله ﷺ قد أمه أمر الأذان وإعلام الناس بالصلاة، حتى قال: «لقد هممت أن أبعث رجلاً فيقومون على أطام المدينة، فيؤذنون الناس بالصلاة». واستشار في ذلك أصحابه؛ فقال بعضهم: نستعمل الناقوس كما يفعل النصارى؛ وقال بعضهم: ننفخ في

البوق كما يفعل اليهود؛ وقال بعضهم : نضرب بالدف كما يفعل الروم؛ وقال بعضهم : نوقد ناراً كما يفعل المجوس؛ واقترح بعضهم أن تُرفع راية إذا حان وقت الصلاة، فإذا رآها الناس أعلم بعضهم بعضاً. . ولكن رسول الله ﷺ لم يرتض شيئاً من ذلك، وكان صلى الله عليه وسلم، يحب أن يعمل عملاً يتميز به الإسلام من سواه، فتفرقوا ولم يتفقوا على شيء، وقام رسول الله مهتماً وقام أصحابه كذلك. وفي رواية أنهم اتفقوا على الناقوس وهما أن يَنْقُسُوا.

قال ابن إسحاق : « فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله ابن زيد - بن ثعلبة - النداء. فأتى رسول الله ﷺ فقال له : « يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف : مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له : يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال : وما تصنع به؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة. قال : أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت : وما هو؟ قال تقول : « الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حتى على الصلاة حتى على الصلاة، حتى على الفلاح، حتى على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. »

فلما أخبر بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله.. فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أُنذَى^(١) صوتاً منك». فلما أذن بها بلال، سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلله الحمد على ذلك!».

قال ابن سعد: وبقي ينادى في الناس: «الصلاة جامعة» للأمر يحدث، فيحضرون له فيخبرون؛ مثل فتح يقرأ أو أمر يؤمر به، فينادى: «الصلاة جامعة» وإن كانت في غير وقت الصلاة.

صلة المسلم بالمسلم أساسها الأخوة في الله

وأما صلة المسلم بالمسلم فقد جعلها صلى الله عليه وسلم أخوة فوق أخوة النسب.. أخوة خالصة في الله وحده، أساسها قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقوله عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته». وعلى هذا الأساس آخى

(١) أُنذَى صوتاً: أعلَى وأبعد مدى.

رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل رجل من المهاجرين أخاً من الأنصار. فكان الأنصارى يشاطر أخاه المهاجر داره وماله، وهو بذلك طيب النفس قدير العين؛ حتى لقد عرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف، أن يشاطره ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها، فضرب الأنصار بذلك مثلاً في الأخوة لا نظير له في تاريخ الإنسانية كلها. وقد عَرَفَ الله سبحانه للأنصار هذه المكرمة، ونوّه بذكرها لهم في كتابه إذ يقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يوقِ شَحْنُ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

لكن المهاجرين لم يستغلوا هذه العاطفة الكريمة في إخوانهم الأنصار ليعيشوا كلاً عليهم، بل أخذوا يسعون ويكدون في سبيل العيش، فاشتغل بعضهم بالتجارة في أسواق المدينة، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار، وكانوا يجهدون أنفسهم في العمل حتى يتصبب العرق منهم، وتظهر آثاره في ثيابهم وأبدانهم.

ولقد قاسى المهاجرون في المدينة كثيراً من ضنك العيش،

(١) سورة الحشر الآية ٩.

ومرت بهم أزمات شديدة قاسية؛ ولم يكن ذلك تقصيرًا من الأنصار في معונهم، بل إن عددهم قد جعل يتزايد بالمدينة، حتى غدا أكثر مما تحمله طاقتها. لكن رابطة الأخوة الرحيمة الصادقة التي جمعت بينهم، قد هونت عليهم كل شدة، وسهلت لهم كل صعب، وعوضتهم من شقاء الأجسام نعم الأرواح وسعادة الأنفس.

لقد كانت هذه الأخوة شيئًا جديدًا على المجتمع العربي، الذي قطعت أوصاله عصبية القبيلة، وفككت روابطه قرابة الدم؛ بل كانت نوعًا فريدًا في تاريخ الأخوة الإنسانية، قضى على كل تعصب للجنس وللون وللقرابة وللوطن.

صلة المسلم بغير المسلم أساسها الأخوة الإنسانية

وأما صلة المسلم بغير المسلم، فقد أقامها رسول الله ﷺ على أساس الوشيجة الإنسانية العامة، التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان؛ وجعل ميزانها قوله صلى الله عليه وسلم: «أحب للناس ما تحب لنفسك». ذلك أن الناس - مهما اختلفت أجناسهم وعقائدهم - لا بد لهم أن يتعاونوا على قضاء حوائجهم؛ ولا سبيل إلى التعاون بينهم إلا في ظل السلام، ولا سبيل إلى السلام إلا إذا ساد بين الناس شعور الأخوة

والترابط بالوشيجة الإنسانية العامة فأحبَّ كل إنسان لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه.

كانت المدينة أنسب البيئات لتجريب المبادئ الإسلامية

وكانت المدينة « يثرب » بما فيها من العناصر المتنافرة، ومن العقائد المختلفة. أصلح مكان لتجريب هذه التجربة وتطبيق هذا المبدأ. فقد كان فيها اليهود - وأهم أهل كتاب - يتألفون من ثلاث قبائل: بنى النضير، وبنى قُريظة، وبنى قَيْنُقاع؛ وكل قبيلة مقسمة إلى بطون وعشائر. وكان فيها العرب - وهم مشركون - يتألفون من قبيلتين: قبيلة الأوس، وقبيلة الخزرج؛ وكانت كل قبيلة مقسمة إلى بطون وعشائر، « وكانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال »^(١).

وفوق ذلك لم يكن العرب واليهود على وفاق دائم، بل لم يكن العرب أنفسهم على وفاق بعضهم مع بعض، ولم يكن اليهود كذلك على وفاق بعضهم مع بعض، وكانت نيران العداوة والبغضاء في المدينة دائماً مستعرة، وكان التنافس وتضارب المصالح يزيد في أسباب الشقاق، وكثيراً ما قامت المعارك ونشبت الحروب بين أهل هذه المدينة. فلما أسلم الأنصار من

(١) الدعوة إلى الإسلام.

الأوس والحزرج، وهاجر إليهم فريق من مسلمى قريش، ظهر في المدينة عنصر جديد، هو عنصر المسلمين؛ وهو عنصر منافس، لا تنظر إليه العناصر الأخرى بعين الرضا والمودة.

وهكذا كانت المدينة عند مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ خليطًا من العقائد المختلفة، ومن العناصر التي لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق؛ فعمل صلى الله عليه وسلم على أن ينظمها ويوحد بينها، ويجمعها تحت جامعة الإنسانية العامة، ويقم التعاون بينها على أساس من الإخاء العام، الذي يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان. فكتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار، بين فيه ما يجب على المؤمنين والمسلمين - بعضهم لبعض - من التعاون والتكافل والتناصر والأخذ على يد الباغي؛ ووادع فيه اليهود وعاهدهم، فشرط لهم أن يكونوا آمنين على دمائهم وأموالهم ومواليهم، وأن يكونوا أحرارًا في عقائدهم؛ فمن تبع المسلمين منهم فله ما للمسلمين من النصر والأسوة. واشترط عليهم أن يكونوا مع المسلمين يدًا واحدة على من دَهِمَّ يثرب أو حارب أهلها، وأن ينفقوا مع المؤمنين، ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

كما اشترط على المشركين من العرب ألا يُجِيرَ مشرك مالا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن؛ وألا تُجَارَ قريش

ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وكما تضمن الكتاب حرّية العقيدة وحرية الرأى وحرية الهجرة والإقامة، تضمن حرّمة النفس وحرمة المال وحرمة الجوار وحرمة الوطن، وكفل نُصرة المظلوم ومقاومة المعتدى وإعانة المُثَقَّل، وشدد في تحريم البغى والفساد وإيواء الباغين والمفسدين، وفتح باب الصلح لمن أرادته من المسلمين وغير المسلمين، ودعا الجميع إلى التعاون على البر دون الإثم؛ وجعل الاحتكام فيما يكون بين أهل هذه الصحيفة من خلاف، إلى الله وإلى رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم.

وكان الهدف الذى يرمى إليه رسول الله ﷺ، أن يعيش الجميع فى وطنهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأهلهم، وأن يكونوا أحرارًا فى عقائدهم وآرائهم، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

* * *

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يضع قواعد المجتمع المثالى الصالح، الذى يسوده السلام والوثام والحب؛ ويُعدّ له الفرد المثالى الصالح، الذى يقيم صلته بالله على الإخلاص فى عبادته والعمل فى مرضاته، ويقيم صلته بالناس على التعاون الصادق فى

سبيل الخير، ويعاملهم جميعًا على أنهم إخوة، فمن وافقه في عقيدة الإسلام فهو أخوه في الله، ومن خالفه فيها فهو أخوه في الإنسانية.

وأخذ الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بالتشريع الذي يقيم نظام الجماعة على أساس واضح، ويضمن سلامة بنائها من عوادي النزعات والأهواء؛ ففُرض الصيام تربية لإرادة الفرد، وإرهاقًا لإحساسه نحو الفقير والمسكين؛ وفرضت الزكاة تقريرًا لمبدأ التكافل العام بين أفراد الجماعة. وأخذت الأمة المسلمة تتميز بخصائصها ومبادئها؛ فاتخذ الأذان للصلاة وحُولت قبله المسلمين إلى الكعبة، بعد أن كانوا يشاركون اليهود في قبلتهم إلى بيت المقدس.

لقد كان فيما وضع الإسلام من مبادئ وأصول، كفايةً وضمانًا لدوام السلام والتراحم والحب بين الناس، لولا أن طبيعة الأثرة في بني آدم، تحرك شهوات النفوس في كثير من الناس، فتثير فيها عوامل الحسد والغيرة والبغضاء لكل مصلح؛ وتدفعها إلى اعتراض كل إصلاح لا يجارى أهواءها، ولا يوافق مصالحها، وإن كان هو الحق بكل الحق، والصالح كل الصالح للمجتمع.

حماية العقيدة

كانت رسالة محمد إلى الناس كافة
ولكن قريشاً وقفت عقبة في سبيلها

لا شك أن مهمة الرسول ﷺ الأولى هي البلاغ. فكل رسول أرسله الله إلى قوم كان عليه أن يبلغ دعوته إلى قومه؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(١)، ويقول لرسوله محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

وقد أرسل الله رسوله محمدًا، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس كافة؛ فكان عليه أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس، وأن ينشرها بينهم في أوسع مدى ممكن، من الأمة التي يعيش فيها، ومن الأمم التي حولها. وكان صلى الله عليه وسلم، يذكر هذه الحقيقة، وينوّه بها في كثير من أحاديثه فيقول: «بعثت إلى

(١) سورة النساء الآية ١٦٥.

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧.

الأحمر والأسود».. «أرسلت إلى الناس كافة، وإن خُسم
النبيون».. «أنا رسول من أدركت حيًّا ومن يولد بعدى»، كما
كان يذكرها على لسان الوحي فيقول: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ
لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(١). وفي القرآن الكريم كثير من الآيات،
وفي كتب الصحاح كثير من الأحاديث تشير كلها إلى ذلك.

وقد قضى رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى
الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يؤمن به في هذه الحِقبة الطويلة
إلا نحو ثلاثمائة؛ وهو عدد قليل جدًا إذا قيس إلى مجموعة
السكان في مكة، وإلى مدى الزمن الذى تم فيه إيمان هذا
العدد القليل. ذلك أن قريشًا وقفت عقبة كئودًا في سبيل دعوة
الإسلام، تحاربها، وتفتن بها، وتبذل كل ما فى وسعها لكيلا
يؤمن بها أحد. فلما أراد بعض المؤمنين أن يفروا بدينهم إلى
بلاد الحبشة، أرسلت قريش رُسلها فى طلبهم، وبذلت فى ذلك
ما بذلت من جهودها وأموالها، لولا أن عصم الله المؤمنين منها
بعدل النجاشي وحكمته.

فلما قيَّض الله لرسوله ﷺ من آمن به من أهل يثرب،
وباعوه على أن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه إلى الناس، تزلزلت
قريش واضطربت لهذه البيعة، وجرت فى إثر أولئك الأنصار

(١) سورة الأنعام الآية ١٩.

تَحاوَل أن تَسترد منهم بَيعَتهم. فلَمَّا عَجَزَت عَن استردادها مِنهم، أَخَذَت تَحَوَّل بَين المَؤمِنين وبَين أن يَهاجروا إلى يَثرب، حَتى لَم يَستطع أن يَهاجر مِنهم إلَّا الأَقوياء، وَحَتى لَم يَستطع أَكثَر هَؤُلاءِ الأَقوياء أن يَهاجروا إلَّا تَسَلُّلاً تَحْتَ سِتار اللَّيل، وَفى غَفلة مِن عَيون القوم؛ أَمَّا المَستضعِفون مِن الرِجال والنِّساء والولَدان، فَقد اسْتَطاع أَقلُّهم أن يَنجو بِنفسه، وَبَقى أَكثَرهم حَيِّسًا فى مَكَّة، يَقالى مِن ظَلَم قَريش، وَعَدوانِها ما يَقالى.

عَلَى أن هَذا كَلَه لَم يَشَف غِل قَريش، وَلَم يُذَهب غِيظ قُلُوبِها عَلَى دَعوة الإِسلام، فَأَخَذوا يَدبِرون وَيَأْتُمِرُونَ بِرِسالِ اللهِ لِيَقْتُلُوهُ.



لَم فَعَلت قَريش كَل هَذا؟.. كَانت قَريش تَدعى أَنَّها تَفعل ذَلك مَحافِظَةً عَلَى دينِها، فَهَل كَانت تَبغى أن تَحافظ عَلَى دينِها حَقًّا؟ لَو كان هَذا حَقًّا لَوَقُفت إِذن فى وَجِه كَل مِن خَرجوا عَلَى دينِها مِن قَبل؛ فَلَيس مُحَمَّد أَوَّل مِن خَرج عَلَى دين قَريش، بَل خَرج مِن قَبله نَفر مِن حَلِبانِها وَعَقِلاتِها، ذَكَر التَّاريخ مِنهم زَيد بن عَمرو بن نُفَيل، وَوَرَقَة بن نَوفل، وَعَبدُ اللهِ ابن جَحش، وَعُثمانُ بِالْحَوِثِرِث، وَقُسَّ بن ساعِدَة. وَكان زَيد بن عَمرو يَقف بِجِوار الكَعْبَة، فَيَعيب دين قَريش وَيَدعو إلى دين

إبراهيم؛ وكان قس بن ساعدة يخطب بدينه في الأسواق. بل إن كثيرًا من رجال قريش وشبابها كانوا لا يتمسكون بدينهم، ولا ينظرون إلى آلهتهم نظرة التقديس والإجلال.

لم تكن قريش إذن حريصة كل الحرص على دينها.. فلم وقفت تعارض محمدًا هذه المعارضة، وتحاول الصد عن دعوته بكل ما تستطيع من جهد ومال؟ ولم وقفت تناوئه هو من دون من خرجوا على دينها؟.. لقد أراد محمد أن يترك لقريش دينها ويخرج عنها بدعوته وأصحابه إلى غير مكة من بلاد الله؛ فهل سمحت له قريش بذلك؟ أما كان في ذلك راحة لها ولهم؟ أما كان في ذلك أسوة بمن خرجوا على دينها قبل محمد، وذهبوا في البلاد باحثين عن دين غير هذا الدين؟ بلى..! ولكن دعوة محمد كانت خطرًا مباشرًا على سيادة قريش، وكانت سيادة قريش هي مصدر عزها ونعمتها، وكان دين قريش وهو مصدر هذه السيادة التي أغرقتها في النعيم والترف. ومن هنا كانت قريش تنظر إلى هذه الدعوة، كما تنظر إلى الخطر الداهم الذي يريد أن ينقض عليها، فيقوض أركانها ويهد كيانها.

كانت هجرة النبي فرارًا بدعوته لا فرارًا بنفسه

لم يكن بقريش إذن حرص على دينها، بل كان بها الحرص كل الحرص على كيانها؛ ولم تكن تدافع عن عقيدتها، وإنما

كانت تدافع عن سيادتها؛ ومن أجل هذا وقفت تناوئى دعوة الإسلام، وتحاول أن تمنعها من الخروج عن أقطار مكة. فلما تسربت الدعوة على رغمها إلى يثرب، وصار لها هنالك أنصار وأعوان، وأخذ المسلمون يتسللون من مكة مهاجرين إلى هذا المأمن الجديد.. أدركت قريش ما هنالك من خطر، وأيقنت أن الخطر لا بد واقع بها، إذا لم تتدارك أمرها بأسرع ما تستطيع؛ فاعتزمت أن تقضى على محمد، قبل أن يلتحق بأصحابه وأنصاره فى المدينة.

والذى لا شك فيه أن قريشاً لم تكن تبغى القضاء على محمد لأنه محمد؛ إنما كانت تبغى القضاء عليه لتقضى على دعوته الخطيرة؛ فقد خُيِّلَ إلى قريش أن محمداً هو باعث هذه الدعوة ومصدر الخطر فيها، وأن فى القضاء عليه قضاءً على دعوته؛ وغاب عنها أن محمداً ليس إلا رسولاً، وأن الله الرحيم بعباده ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولتُوَكِّرَ المشركون﴾^(١)، وأنه تكفل لرسوله بأن يعصمه من الناس حتى يبلغ رسالته؛ ومن أجل هذا صرف عنه كيد قريش، وهياً له سبيل الهجرة بدعوته إلى يثرب.

(١) سورة التوبة الآية ٣٣. وسورة الصف الآية ٩.

ظلت قريش تطارد الدعوة في المدينة

كما كانت تطاردها في مكة

لم تكن هجرة الرسول ﷺ إذن فرارًا بنفسه من قريش، إنما كانت فرارًا بدعوته الحبيسة، بعد أن وقفت قريش لها بكل سبيل، تحول بينها وبين الظهور والانتشار؛ فهل كان من المعقول أن تسكت عنه قريش وأن تتركه في مكانه آمنًا ينشر دعوته كما يشاء وحيث شاء؟.. إن نجاح هذه الدعوة معناه القضاء المبرم على كيان قريش. فكيف تتركها الآن تهدأ وتستقر، بعد أن بذلت ما بذلت في حربها هذه السنين الطوال؟ كيف تتركها وقد أصبحت خطرًا يهدد تجارتها إلى الشمال، بعد أن صار لها في المدينة أنصار وأعوان؟..

لم يكن هناك شك في أن قريشًا ستضعف جهودها في محاربة هذه الدعوة، وستبذل كل ما في وسعها لكي تجمع العرب على محاربتها. وهذا ما أخذت قريش تعمل له وتسعى إليه؛ فقد جعلت منذ ذلك الحين، تحرض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين، وتؤلب عليهم أعداء الإسلام في داخلها، ففضى المسلمون أيامهم الأولى بالمدينة بين خوف وحذر، يترقبون في كل لحظة عدوًا يهاجمهم بقوته من الخارج، أو يفاجئهم بخيائته من الداخل.

كان لابد للدعوة من قوة تحميها

أفكان يمكن أن تسير الدعوة بعد ذلك بغير قوة تحميها، والأعداء يحيطون بها من كل جانب، ويترصون بها الدوائر في كل وقت؟ لم يكن ذلك بالطبع ممكناً؛ فكان طبيعياً إذن أن يحمي المؤمنون دعوتهم، وأن يدفعوا عنها من يعتدى عليها. ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا في سبيل دعوتهم، فقال سبحانه: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ * الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا اللَّهُ؛ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً؛ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ^(١)

وبهذا أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا مَنْ ظلمهم وأخرجهم من ديارهم، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وحده؛ وبين لهم أن الدفاع عن العقيدة هو الطريق الطبيعي لحمايتها، ولتمكين المؤمنين من أن يقيموا شعائر دينهم، وأن ينشروا الصلاح ويقضوا على

(١) سورة الحج الآيات ٣٩ - ٤١.

الفساد فى الأرض؛ ووعدهم النصر والتأييد على إعلاء كلمة الحق ما داموا يقاتلون فى سبيل الحق. فكان هذا مبدأ عاماً لقتال كل عدو يقف فى طريق الدعوة إلى الإسلام.

وكانت قريش هى العدو الأول، الذى ظلم المسلمين وأخرجهم من ديارهم ووقف سداً فى طريق دعوتهم؛ فكان عليهم أن يقاتلوا دفاعاً عن عقيدتهم، وانتصافاً لأنفسهم، ما دام الله قد أذن لهم، ووعدهم النصر والتأييد، وجعل لهم قوة يستطيعون بها أن يدفعوا عن أنفسهم شر هذا العدو الحائق.

لقد صبر المسلمون على الأذى حين كانوا بمكة قلة مستضعفين فى الأرض؛ فلما آزرهم الله بإخوانهم الأنصار فى يثرب، لم يعد هناك معنى للرضا بالذل أو البقاء على الهوان، وأصبح واجباً عليهم أن يُشعروا عدوهم بقوتهم؛ فليس يدفع القوة إلا القوة، ولا يُفلّ الحديد إلا الحديد. ولعل هذا هو مرمى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾^(١).

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠.

لم تكن قريش وحدها هي العدو

فهل كانت قريش وحدها هي العدو الذي يناوئ الإسلام ويصد عن سبيله؟ لا.. لم تكن قريش وحدها هي العدو وإن كانت هي أول من بادى المسلمين بالعداوة؛ بل كان هنالك اليهود من أهل المدينة وما حولها، وكان هنالك المنافقون من أهل المدينة وما حولها؛ وكان هنالك المشركون من أهل المدينة ومن قبائل العرب جميعًا.. كان كل أولئك أعداء لدعوة الإسلام؛ منهم من كان يعاديا بدافع الحرص على مكانته، ومنهم من كان يعاديا بدافع العصبية وحدها، ومنهم من كان يعاديا مدفوعًا بتحريض غيره، ومنهم من كان يعاديا حسدًا وبغيًا، ومنهم من زُيِّفت عليه أصولها وشُوِّهت له معالمها، فهو يعاديا دون أن يقف على حقيقتها.

كان اليهود يعادون الدعوة حسدًا وبغيًا

أما قريش فقد كانت تعارض دعوة الإسلام، لأنها كانت تعارض رفاهيتها وسيادتها. وأما اليهود فكانوا أهل علم وكتاب سماوي، وكانوا أولى الناس بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يصدقوا ما جاء به من هذا الدين الذي جاء مكملًا لدينهم، مصدقًا لما بين أيديهم من الكتاب، موافقًا لكل ما يعرفون من صفة

هذا النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة. ولكن طبيعة الأثرة غلبت على نفوسهم، فعز عليهم أن يكون هذا النبي من العرب لا من اليهود، وأن ينزعهم المكانة الدينية أحدًا من غيرهم، أو تشاركهم أمة أخرى في هذه الميزة التي يمتازون بها على العالمين، فقد كان اليهود يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وشعبه المختار في الأرض، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم.

فلما أرسل الله محمدًا ﷺ من العرب لا من اليهود، ملأ نفوسهم الحسد والغيرة، وأكل قلوبهم الحقد والغيط، وجعلوا يشككون في نبوته وفي دينه، ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذي كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الذي كنا نبتغي. وحرفوا ما جاء في كتابهم عنه، وغيروا كل ما يدل عليه من اسم أو صفة أو إشارة، وأضمروا له العداوة والبغضاء، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾^(١)، يريدون بذلك إفحام الرسول وإبطال نبوته. وجعلوا وكذبهم أن يصدوا عن سبيل الله ما استطاعوا؛ متخذين لذلك كل وسيلة دنيئة، وكل حيلة دنسة؛ مدفوعين بدافع الحسد والحقد، حتى لا يظهر في الأرض دين غير دينهم، ولا يسيطر

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٣.

على قلوب الناس رسول من غيرهم .
 ومع أن رسول الله ﷺ كان يعلم ذلك من أمرهم ، فإنه
 جعل يدعوهم إلى الإسلام في رفق ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ،
 ويتغاضى عن كثير من سيئاتهم ، ويقول لهم في هَوَادَة :
 ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ
 إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ
 دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ؛ ويعاتبهم في هَوَادَة أيضًا : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
 لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ * قُلْ يَا أَهْلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ
 وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) ، ويذكرهم نعم الله عليهم ونداءه
 لهم : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا
 بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴾ * وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ
 مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِ ثَمَنًا
 قَلِيلًا ، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ
 وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ
 الرَّاكِعِينَ ﴾ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ
 الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
 إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤

(٢) سورة آل عمران آيتا ٩٨ ، ٩٩ .

راجِعون * يا بَنى إِسْرَآئِيل اذْكُرُوا نِعْمَتى الّتى أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَنّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزى نَفْسٌ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿١﴾ .

كان النبي يتودد إلى اليهود وهم يعادونه

وقد جعل صلى الله عليه وسلم يلاينهم ويترضاهم، ويتودد
لهم ويصابرهم، ويدعوهم إلى دينه بكل وسائل الإقناع والرفق.
بل جعل يشاركهم في كثير من مشاعر دينهم؛ فيصوم معهم يوم
عاشوراء كما يصومونه، ويتوجه إلى بيت المقدس في صلاته
كما يتوجهون إليه؛ وأمنهم على حريتهم ودينهم وأموالهم،
ومد يده إليهم ليتعاونوا معه على حماية يثرب - وطنهم - ممن
يغير عليه.. ولكن نيران الحسد كانت تغلى في قلوبهم؛ ولم يكن
يطفى هذه النيران إلا أن يعود المسلمون إلى الكفر بعد الإيمان؛
فكان هدفهم والمشركون واحدًا في القضاء على دعوة
الإسلام، حتى قال الله فيهم وفي المشركين: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ
مَنْ رِبِكُمْ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة الآيات ٤٠ - ٤٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٥ .

وظلّت العداوة كامنة في صدورهم لرسول الله ﷺ ولدعوته منذ قدم عليهم المدينة، وجعل لهيها يزداد كلما رأوا سلطانه يتمكن ودينه يظهر، حتى صرحوا بها وأعلنوا، وجأهروا رسول الله بالكفر والعداوة، والمكر والكيد؛ فكان من أمره وأمرهم ما كان بعد ذلك.

روى ابن إسحاق فيما كان من حديث ابن سلام - خبر اليهود وعالمهم - حين أسلم أنه قال: «لما سمعت رسول الله ﷺ، وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له.. فلما قدم المدينة نزل بقاء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة.. فلما سمعتُ الخبر بقدم رسول الله كبرت؛ فقالت عمتي حين سمعت تكبيرى: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت! (قال): قلت لها: «أئى عمّة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعث بما بُعث به» (قال): فقالت: «يا ابن أخى، أهو النبي الذي كنا نُحِبُّ أنى يبعث مع نفس الساعة»^(١)؟ (قال): قلت لها: «نعم». قالت: فذاك إذن! (قال): فخرجت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم

(١) تعنى أنه آخر رسول تقوم بعده القيامة.

فأسلموا. وكتمت إسلامي من اليهود، وقلت: يارسول الله، إن اليهود قوم بُهت^(١)، وإن أحب أن تُدخلني في بعض بيوتك فتغيبي عنهم، ثم تسألهم عني، فيخبروك كيف أنا فيهم، فأدخلني رسول الله في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه؛ ثم قال لهم: «أى رجل الحصين بن سلام فيكم؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا.. (قال): فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به؛ فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته! فلما أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأصدقته وأعرفه.. فقالوا: كذبت! ثم وقعوا بي^(٢). فقلت لرسول الله، ﷺ: ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور؟ (قال): وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها».

وروى ابن إسحاق من حديث صفية بنت حيي بن أخطب - زوج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. (قالت): فلما قدم رسول الله، صلى الله

(١) قوم بهت: قوم زور وبهتان.

(٢) وقعوا بي: عابوني وسفهوني.

عليه وسلم، المدينة، ونزل بقاء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي وعمى مُغْلَسَيْن. فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا فاترين كسلاتين ساقطين، يشيان الهوئي. (قالت): فَهَشَشْتُ إِلَيْهَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَاللَّهِ مَا التَفْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مِمَّا بَيْنَهُمَا مِنَ الْغَمِّ! وَسَمِعْتُ عَمَى أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حَيٍّ بْنِ أَخْطَبٍ: أَهْوَ هُوَ...؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ. قَالَ: أُنْعِرْهُ وَتَثْبِثْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ قَالَ: عِدَاوَتُهُ - وَاللَّهِ - مَا بَقِيتُ!!»

وكان المنافقون يتظاهرون بالإسلام

ويضمرون له العداوة

أما المنافقون فهم الذين قالوا: آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، يصلون كما يصل المسلمون، ويصومون كما يصوم المسلمون، ويشاركون المسلمين في كثير من شعائر دينهم؛ فهم في ظاهر أمرهم مسلمون، ولكن قلوبهم تضر العداوة والبغضاء للإسلام وأهله.. كان فريق منهم يُبغض الإسلام لما فوّت عليه من المنفعة العاجلة والمصلحة الخاصة؛ وفريق كان يرى في الإسلام خطراً على دينه؛ وفريق كان يستمع لشكيك اليهود في رسول الله ﷺ وفي دعوته؛ وفريق كان يرى رسول الله وصحبه من المهاجرين دخلاء على المدينة، وعنصرًا غريبًا ينبغي ألا يمسكون

له فيها. وعلى كل فقد كان هؤلاء وهؤلاء يشكون في انتصار الإسلام على اليهودية والوثنية؛ فخشى كل فريق أن يورط نفسه في مناصرته، وأثر الانتظار والترص حتى يرى ما يكون من أمره. فلما رأوا قوة المسلمين تزداد، وسلطانهم يتمكن تظاهروا بالدخول في الإسلام؛ فوقوا بذلك أنفسهم شر العداوة الظاهرة؛ وتمكنوا أن يدخلوا في صفوف المسلمين، فيعرفوا ما يريدون من أسرارهم، ويمدوا بها من يشاء من أعدائهم؛ فكانوا بذلك أخطر على الإسلام من اليهود والمشركين.

ويقول الرواة: إن عبد الله بن أبي بن سؤل كان على رأس المنافقين، وإن الذى دعاه إلى عداوة الإسلام، أن أهل المدينة من الأوس والخزرج، كانوا أوشكوا أن يملكوه عليهم، وذلك حين قدم رسول الله ﷺ عليهم المدينة. فلما آمنوا برسول الله وصدقوا بدعوته، تركوا ما كانوا قد عزموا عليه من تمليك عبد الله بن أبي، ودخلوا في طاعة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فحرّ ذلك في نفس ابن أبي، وجعل ينظر إلى رسول الله كما ينظر إلى الغريم الذى غلبه على ما كان بين يديه؛ فلم يؤمن به حين قدم المدينة، وظل على شركه حتى كانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، ونصر الله المسلمين على المشركين.. فلما رأى شوكة الإسلام تشتد، وأمره يظهر، قال لأصحابه:

« هذا أمر قد تَوَجَّهَ ».. ودخلوا في الإسلام ظاهراً، وأضمرُوا له
العدواة والبغضاء في أنفسهم، وجعلوا يترصنون به الدوائر،
ويكيدون للمسلمين كلها وجدوا أمامهم فرصة سانحة.

وكان الأعراب يعادون الدعوة مجارة لقريش

كذلك كان الأعراب الذين يحيطون بالمدينة، والذين يقيمون
في الطريق بينها وبين مكة، والذين ينتشرون في شرق الجزيرة
وغربها وشمالها وجنوبها.. كل هؤلاء وأولئك كانوا لا يزالون على
شركهم، وعبادتهم لأوثانهم، وتقليدهم لأبائهم؛ فاستغلت قريش
سلطانها الديني على هؤلاء المشركين، وجعلت تحرضهم على
الإسلام، وتبث في نفوسهم العدواة له والثورة عليه.

ولقد وجدت قريش في شرك المشركين من العرب، وفي
نفاق المنافقين من المسلمين، وفي عداوة اليهود للإسلام ورسوله
ﷺ وجدت في كل ذلك مددًا عظيمًا يمكن استغلاله في القضاء
على دعوة الإسلام؛ فسعت لذلك سعيها، وضاعفت جهودها.
وهذا ما حسب النبي له حسابه، حين طلب إلى الأنصار - قبل
هجرته - أن يعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم
وأبناءهم؛ وحين عاهد اليهود - بعد هجرته - فاشتراط عليهم
أن يكونوا يداً واحدة على من دهم يثرب أو حارب أهلها. فقد
كان على يقين بأن قريشاً لن تتركه آمناً في مكانه، ولن يهدأ لها

بال حتى تقضى عليه وعلى دعوته، وحتى تردّ المسلمين إلى الكفر بعد الايمان. وهذا ما أكدّه الوحي في قول الله عز وجل عنهم : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

القتال في الإسلام ليس إلا دفاعًا عن العقيدة

كان الإسلام إذن في حاجة إلى أن يدافع عنه أهله، وأن يحموه من أذى أعدائه، وأن يعملوا على عَرْضِهِ للناس في جو من الحرية والأمن والطمأنينة؛ ولكل امرئ بعد ذلك أن يختار لنفسه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٢) ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين في القتال، لأنه الوسيلة الوحيدة لحماية العقيدة وتأمين المؤمنين بها، حين لا تجدى وسائل السلم.

على أن الله سبحانه حين أذن للمؤمنين في القتال، لم يأذن لهم فيه إلا دفاعًا عن عقيدتهم، وحماية لها ممن يعتدى عليها. وفي حدود الدفاع عن العقيدة وحمايتها، نزلت آيات القتال والحث عليه في القرآن الكريم.

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧.

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩.

فالذين يقاتلون المؤمنين، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

والذين يُخْرِجون المؤمنين من ديارهم، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾^(٢).

والذين يفتنون المؤمنين عن دينهم، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٣).

والذين يحاولون الوقوف في سبيل دعوتهم، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(٤).

والذين يَسْتَنْدِلُونَ المستضعفين من المؤمنين، يجب على الأقوياء منهم أن يقاتلوا لِإِنْقَادِهِمْ : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(٥).

والذين يخونون عهود المؤمنين يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٣.

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠.

(٥) سورة النساء الآية ٧٥.

(٣، ٢) سورة البقرة الآية ١٩١.

بعد إنذارهم : ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(١).

ولم يكن القتال وسيلة قط لإكراه الناس على الإسلام والمبدأ العام في ذلك قول الله تعالى : ﴿فَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٢).. فن اعتدى على المسلمين بالقتال فالمسلمون مكلفون أن يقتلوه حيث وجدوه؛ ومن أخرجهم من ديارهم فليخرجوه منها كما أخرجهم؛ ومن فتنهم عن دينهم أو صدّ عن سبيلهم فالفتنة أشد من القتل. فغاية القتال إذن ألا يُفْتَنَ المسلمون عن دينهم، وألا يُجْرَجُوا من ديارهم أو يُسْتَذَلُّوا في أوطانهم؛ وأن يعزّ دينُ الله ويمتنع على الأذى والفتنة؛ وأن يظل سبيله حرّاً لمن أراد.

على أن يكون القتال كله في سبيل الله؛ وأن تكون غايته إعلاء كلمته ونصر دينه؛ وأن تكون تقوى الله في كل حالة هي شعار المؤمنين : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)؛ وأن تنتهي الحرب بانتهاء الغرض منها : ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٤)؛ وأن تكون الرغبة في السلم أول

(١) سورة الأنفال الآية ٥٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٤.

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٣.

ما يحرصون عليه إذا بدا لهم من عدوهم رغبة في السلم، حتى ولو كان العدو يريد بها خداعاً: ﴿وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إنه هو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وإن يريدوا أن يَخِذْعوك فإنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾^(١).

إنها الحرب إذن. ولكنها «ليست لإكراه الناس على الإسلام، وليست للغنائم والأسلاب والمنافع، وليست للقهر والغلب والاستغلال، وليست للاستعباد والتجبر والإذلال، وليست للمباها والفخر والسيادة.. إنما هي للدفاع عن حرية العقيدة وعن كرامة المعتقدين»^(٢).

أما العقيدة نفسها فلم يكن القتال وسيلة لإكراه الناس على اعتناقها؛ فإن العقيدة بطبيعتها تأبى الإكراه، ولا يمكن أن تستقر في النفس عن طريقه. إنها فكرة يؤمن بها القلب عن طريق الرغبة، ويؤمن بها العقل عن طريق الاقتناع؛ ولم تكن القوة قط وسيلة إلى الإقناع ولا سبيلاً إلى الرغبة. وقد بين الله هذه الحقيقة في كتابه بوضوح وجلاء، فقال سبحانه: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشْدُ من الغي﴾^(٣).. ﴿إنَّ هذه تَذَكُّرةٌ فَمَنْ شاء اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٤).. ﴿وقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاء

(١) سورة الأنفال آيتا ٦١، ٦٢

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦

(٤) سورة المزمل الآية ١٩

(٢) في ظلال القرآن.

فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ^(١). وحدد لرسوله مهمته بقوله : « إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغَ^(٢) .. » « إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ^(٣) ». وحذّره أن يجعل الإكراه وسيلة من وسائله لهذا الدين، فقال سبحانه : « فَذَكِّرْ إِنْمَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ^(٤) .. » « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٥) ». وعاتبه حين شغله الحزن لعدم إيمان قومه، فقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٦) » ..

وهكذا تعددت الأساليب في القرآن وتنوعت، لتأكيد هذا المعنى وتوضيحه في نفس الرسول ﷺ. وإذن فلم تكن القوة وسيلة من وسائل الإسلام لإكراه الناس على اعتناقه؛ إنما كانت القوة لمداغة أهل القوة، ولتأديب أهل البغي والعدوان.

إن العقيدة هي أعز ما يعتز به الإنسان، وأعلى ما يحرص عليه في حياته؛ لأنها قوام الإنسان وفرق ما بينه وبين الحيوان.. فمن اعتدى على العقيدة فإنما هدم صاحب العقيدة وألغى وجوده كله. وقد عرف الإسلام للعقيدة قدرها، فجعلها فوق الحياة

(٤) سورة الغاشية آيتا ٢١، ٢٢.

(٥) سورة يونس الآية ٩٩.

(٦) سورة الشعراء الآية ٣.

(١) سورة الكهف الآية ٢٩.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٨.

(٣) سورة فاطر الآية ٢٣.

ذاتها، وجعل الاعتداء عليها أشدَّ جُرمًا من الاعتداء على الحياة.
ومن هنا كانت الفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل؛ وكانت
حماية المؤمنين لعقيدتهم شيئًا لا مناص منه، وضرورة تحميها
الكرامة الإنسانية، ويلزم بها الوجود الإنساني نفسه.

حرب الأعصاب

برم المهاجرون بحياة المدينة أول عهدهم بها
لم تكن حياة المهاجرين في أول عهدهم بالمدينة مُرضيةً كل
الرضا، على رغم ما غمرهم به إخوانهم الأنصار من كريم
العواطف؛ فلقد كان جوّ المدينة غيرَ جو مكة، وطبيعة الحياة
هنا غير طبيعتها هنالك.. كان جو مكة صحوًا نقيًا خاليًا من
الرطوبة، تغلب عليه طبيعة الصحراء الجافة الخالية من الزرع
والماء؛ وكان جو المدينة على عكس ذلك جوًا مشويًا برطوبة
المزارع والأشجار والظلال والماء. فاستوخم المهاجرون هواء المدينة
ولم يوافق أمزجتهم؛ فمرض كثير منهم وضعفوا حتى كانوا يصلون
من قعود؛ فرآهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال :
« اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم »
فتجشموا المشقة وصلّوا قيامًا.

قالت عائشة رضى الله عنها : « قدمنا المدينة وهى أوبأ
أرض الله.. » وأصابتها الحمى فجعلت تسبها، فنهاها رسول الله
ﷺ فى ذلك. ومن الذين أصابتهم الحمى كذلك أبو بكر وبلال

وعامر بن فهيرة؛ وقد اشتد بهم المرض حتى كانوا يَهْذُون. قالت عائشة: «.. فاستأذنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في عيادتهم، فدخلت عليهم - وذلك قبل أن يُضْرَب علينا الحجاب - فإذا بهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى من شدة الوَعَك، فسلمت عليهم وقلت: يا أبت، كيف أصبحت؟ فأنشد:

كُلُّ امرئ مصبِّحٌ في أهلهِ والموتُ أدنى من شِراك نَعْلِهِ

(قالت): فقلت: إنا لله! إن أبى ليَهْذَى.. (قالت): فقلت لعامر بن فَهَيْرَة: كيف تجدك؟ فقال: إني وجدتُ الموتَ دونَ ذَوْقِهِ إن الجبانَ حَتَفَهُ من فَرَقِهِ
فقلت: هذا والله لا يدرى ما يقول. (قالت): ثم قلت لبلال: كيف أصبحت؟ فإذا هو لا يعقل».

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته شوقاً إلى مكة بهذا الشعر:

ألا ليت شعري هل أبَيَّنَ ليلَةً بوادٍ وحولٍ إذْ خِرَّ وجَلِيل؟
وهل أَرَدَنَ يوماً مياهِ يَحْنَةِ وهل يَبْدُونُ لى شَامَةٍ وطَفِيل؟

ثم يقول: «اللهم العن شيعة بن ربيعة وأميمة بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء!!»

وقد زاد في ثِقَلِ المدينة وهوائها أن المدينة بلد زراعى، والمهاجرون قوم تجار لا عهد لهم بالزراعة، وقد خرجوا إلى المدينة مجردين من أموالهم، وكانت طبيعتهم العربية تأبى عليهم أن يعيشوا كلاً على غيرهم؛ فجعلوا يروضون أنفسهم على العمل في الزراعة فعانَوْا من ذلك كثيراً من العنت والمشقة، لاسيما الذين كانوا منهم يعيشون في مكة عيشة مترفة.

وكانت غريزة الحنين الطبيعي إلى الوطن، من أسباب ثقل المدينة على المهاجرين؛ فقد روى عن عائشة أنها سألت في حضرة رسول الله ﷺ رجلاً قدم من مكة إلى المدينة، فقالت له: كيف تركت مكة؟ فذكر من أوصافها الحسنة ما غرَّغَتْ منه عينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال: «لا تشوقنا يافلان، ودع القلوب تَقَرَّ»! وكان صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يحبَّ إليهم المدينة فيقول: «اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مُدَّها وصاعها، وصَحَّحها لنا، ثم انقل نُحْمَها إلى مَهْجَةٍ»! أى (الجحفة)^(١).

ضيق المنافقين والكفار بالمهاجرين

على أن المدينة لم تكن كلها ترحيباً خالصاً بالمهاجرين، فقد كان إلى جانب الأنصار عدد غير قليل من سكانها من اليهود

(١) الجحفة: بلدة بالصحراء.

والمنافقين والمشركين، وكان هؤلاء ينظرون إلى المهاجرين نظرة المقت والحقد، ويعتبرونهم دخلاء عليهم، وعنصرًا غريبًا جاء يزاحمهم في أرزاقهم، ويعكر عليهم صفاء الحياة ورغد العيش الذي ينعمون به.

من أجل ذلك جعل رسول الله ﷺ يدعو ربه أن يحب إليهم المدينة، ويرزقهم فيها رغد العيش وبركة الرزق وصحة البدن؛ وجعل يفكر فيما يهيئ لأصحابه فيها حياة مستقرة هانئة، تزيل عنهم وحشة الغربة وذل الحاجة، وسؤرة الحنين إلى الأهل والوطن؛ «فَحَظُّ لِمَنْ يَسْتَطِيعُ الْبِنَاءَ مِنْهُمْ فِي كُلِّ أَرْضٍ لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، وَفِيمَا وَهَبَتْ لَهُ الْأَنْصَارُ مِنْ خُطْطِهَا، وَأَقَامَ قَوْمٌ مِنْهُمْ لَمْ يُمْكِنْهُ الْبِنَاءُ بَقَاءً عِنْدَ مَنْ نَزَلُوا عِنْدَهُ»^(١).

لكن عدد المهاجرين ظل يزداد بالمدينة حتى ضاقت بهم رحابها، وأصبح بعضهم وليس له زاد ولا مأوى؛ فأسكنهم النبي ﷺ صُفَّةَ المسجد، وجعل يوزعهم على أصحابه كل ليلة عند العشاء، ويأخذ هو فريقًا منهم فيتعشَّون معه، وكان هؤلاء يسمَّون «أهل الصفة» وفقراء المسلمين. وكأنما كان هذا الفقر نعمة أنعم الله بها عليهم؛ فقد كان لديهم من الفراغ وسعة الوقت ما جعلهم أشدَّ الصحابة لصوقًا بالنبي، صلى الله عليه

(١) السيرة الحلبية.

وسلم، وأكثرهم مداومة على حضور مجلسه، فأفادهم ذلك علماً وفقهاً في الدين، وإحاطة بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان منهم الفقهاء والعلماء. وكان رسول الله شديد الرعاية لهم؛ فكان إذا صلى جلس إليهم فقال لهم: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقراً وحاجة»؛ فكانوا يتجملون ويعتصمون بالصبر.

مرت بالمسلمين أزمات شديدة

لقد مرت بالمسلمين أزمات شديدة قاسية، وأيام كانوا لا يجدون فيها ما يسد الرمق من خشن الطعام، حتى لقد كان الضيف ينزل بهم أحياناً، فيعرضه النبي ﷺ على أهله وأصحابه، فلا يجد عند واحد منهم ما يكفي لإطعامه؛ وحتى كان المسلم يسأل أخاه المسلم عن شيء من الطعام يتبلى به، فيجده قد شد على بطنه من شدة الجوع؛ وحتى كان رسول الله ﷺ نفسه تمر به الليالي ذوات العدد، لا يوقد في بيته نار ولا يطهى طعام. «وقد قاسى رسول الله ألم الجوع غير مرة، حتى اضطر ذات يوم إلى رهن درعه عند يهودى، لخلو بيته من صاع شعير»^(١).

ويجمل بنا أن نستعرض بعض صور من حياة المسلمين

(١) حياة محمد لدرهم.

بالمدينة، مما جاء في كتب الصالح، لنرى إلى أى درجة من الفقر والحاجة وصلت حال المهاجرين حينذاك :

صور من فقر المسلمين بالمدينة أول عهدهم بها

- ١ - عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال : « لقد رأيتني وإنى لأختر - فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة - مغشياً علىّ، فيجئ الجائ فيضع رجله على عنق ويُسرى أنى مجنون؛ وما بى من جنون.. ما بى إلا الجوع » [رواه البخارى].
- ٢ - وعن فضالة بن عبيد، رضى الله عنه، أن رسول الله كان إذا صلى بالناس، يَخِرُّ رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة - وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب : هؤلاء مجانين.. » [رواه الترمذى].

- ٣ - وعن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال : خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذات يوم - أو ذات ليلة - فإذا هو بأبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، فقال : « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ » قالا : الجوع يا رسول الله. قال : « وأنا - والذى نفسى بيده - لأخرجنى الذى أخرجكما.. قوما.. » فقاما معه، فأق رجلًا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته. فلما رآته المرأة قالت : مرحبًا وأهلاً ! فقال لها رسول الله، صلى الله

عليه وسلم : « أين فلان » ؟ قالت : ذهب يَسْتَعِذُّ لَنَا الْمَاءُ ^(١) . .
 إذ جاء الأنصاري . فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبه ثم قال :
 الحمد لله ! ما أحد اليوم أكرمَ أضيافاً مني ! فانطلق فجاءهم
 بعِدْق فيه بُسْرٌ ^(٢) وتمر ورطب ، فقال : كلوا . . وأخذ المُدْيَةَ ؛
 فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إياك والحلُوب ! »
 فذبح لهم ؛ فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا . فلما أن
 شبعوا وَرَوَوْا قال رسول الله لأبي بكر وعمر : « والذي نفسي
 بيده لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة ! أخرجكم من بيوتكم
 الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » [رواه مسلم] .

٤ - وعن أنس ، رضى الله عنه ، قال : جثت رسول الله ،
 صلى الله عليه وسلم ، يوماً ، فوجدته مع أصحابه وقد عصب
 بطنه بعصاة ؛ فقلت لبعض أصحابه : لم عصب رسول الله
 بطنه ؟ فقالوا : من الجوع . فذهبت إلى أبي طلحة - وهو زوج
 أم سليم بنت ملحان - فقلت : يا أبتاه ، قد رأيت رسول الله
 قد عصب بطنه بعصاة ، فسألت بعض أصحابه فقالوا : من
 الجوع . . فدخل أبو طلحة على أمي فقال : هل من شيء ؟
 فقالت : عندي كِسْرٌ من خبز وتمر ، فإن جاء رسول الله

(١) يستعذب : يطلب الماء العذب .

(٢) العدق : العرجون . والبسر : البلح الذى لم يتم نضجه ، والتمر : البلح المجفف .

وحده أشبهناه، وإن جاء آخر معه قل عنهم. . [رواه البخارى ومسلم] .

٥ - وعن جابر بن عبد الله، رضى الله عنها، قال : بعثنا رسول الله - وأمر علينا أبا عبيدة - نلتق عيرًا لقريش، وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة ثمرة. فقليل : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال : نخصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل؛ وكنا نضرب بعصينا الخبط^(١)، ثم نبله بالماء فتأكله. [رواه مسلم].

٦ - وعن أبي هريرة، رضى الله عنهم، قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إمّا إزار وإمّا كساء قد ربطوا في أعناقهم؛ منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته. [رواه البخارى].

٧ - وعن ابن عمر، رضى الله عنها، قال : كنا جلوسًا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه، ثم أدبر الأنصارى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أخا الأنصار، كيف أخى سعد بن عُبادة» ؟ فقال : صالح. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «من يعود»

(١) الخبط : ورق شجر معروف.

منكم»؟ فقام وقنا معه - ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص - وغشي في تلك السباح^(١) حتى جثناه؛ فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله وأصحابه الذين معه. [رواه مسلم].

٨ - وعن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إني مجهود^(٢)! فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: «والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء»! ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك؛ حتى قلن كلهن مثل ذلك: «والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء»! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يضيف هذا الليلة؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامراته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبيان. قال: فعللهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنؤمهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج وأريه أنا ناكل. فقعدوا، وأكل الضيف، وباتا طويين. فلما أصبح غدا على النبي، فقال ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة»! [رواه البخارى ومسلم].

(١) الخفاف: (جمع خف) وهو ما يلبس في الرجل. والقلانس: (جمع قلنسوة) وهو ما يلبس على الرأس. والسباح: (جمع سبخة) وهى الأرض الملحة الزاظة.
(٢) المجهود: الذى أجهدته الجوع وأضعفه.

٩ - وعن عروة بن الزُّبَيْر، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها كانت تقول : والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال - ثلاثة أهلة في شهرين - وما أوقَدَ في بيت رسول الله نار! قلت : ياخاله، فما كان يُعيشكم ؟ قالت : الأسودان : القمر والماء.. إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم مَنَايِح^(١)، وكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها، فيسقينها.

[رواه البخارى ومسلم].

كان المهاجرون يقاسون شدة العيش بالمدينة وقريش بمكة تستمتع بأموالهم

هذه كانت حال المهاجرين منذ أول عهدهم بالمدينة.. ضنك في المعيشة ومشقة في العمل، ووحشة في الغربة، وحنين إلى الوطن، ويُعد عن الأهل والمال، وشعور بالظلم والعدوان.. في حين كانت قريش هنالك ترتع في رغد من العيش وسعة من الرزق، وتستمتع بأموالهم التي أرغمتهم على أن يتركوها بمكة، وتتصرف في دورهم ومتاعهم ومتاجرهم تصرف المالك، وتستذل من خلفوا وراءهم من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ ثم هي بعد ذلك تستطيل عليهم بهذه الأموال،

(١) المَنَايِح (جمع منيحة) : وهى ما يمنحه الرجل لغيره من ناقة أو غنم أو شاة لينتفع بها إلى حين ثم يستردها.

ولا تزال تحاول السعى وتُعد العدة للقضاء عليهم .
أفلا يحق لهؤلاء أن يستردوا بعض أموالهم، ليفرّجوا بها عن
أنفسهم وعن فقرائهم، ويخففوا عن إخوانهم الأنصار بعض
ما ألْقَوْا على كواهلهم من الأحمال الثقال؟ أولا يحق لهم أن
يعودوا إلى ديارهم التي أُخرجوا منها ظلماً بغير حق، إلا أن
يقولوا: ربنا الله؟ أولا يحق لهم أن يستنقذوا المستضعفين من
أزواجهم وأولادهم، ومن آبائهم وأمهاتهم، ومن إخوانهم
وعشيرتهم؟ أولا يحق لهم أن يأمنوا على دينهم الذي هاجروا في
سبيله، وأن يؤمنوا الراغبين فيه على حريتهم حتى لا يُفتنوا
كما فُتنوا؟ أولا يحق لهم أن يُشعروا عدوهم بأنه قد أصبحت
لهم قوة تستطيع أن تحمي حماهم، وترهب من يحاول أن يعتدى
عليهم؟.. لا شك في أن كل سبب من هذه الأسباب كان
كافياً وحده لأن يدفع المسلمين إلى قتال قريش؛ فكيف وهذه
الأسباب كلها مجتمعة هي التي تضطّروهم إلى القتال، ليدرءوا
عن أنفسهم شر هذا العدو الباغى؟..

الرسول يرسل الكتاب في طريق قريش ليرهبها ويشعرها بقوة المسلمين

من أجل ذلك أخذ رسول الله ﷺ يرسل الكتاب من
أصحابه في طريق قريش، ليتحسس أخبارهم، ويكشف نواياهم؛

وليقطع الطريق على تجارتهم، فيقطع بذلك شرياناً من أهم شرايينهم التي تمدهم بالقوة والحبروت، وليشعرهم بأن المسلمين قد أصبحوا قوة يُخشَى بأسها ويُحسَب حسابها، فلعلهم أن يَفِشُوا إلى الصواب فيكفوا عن بغيهم وعدوانهم. فإذا استطاع المسلمون بعد ذلك أن يَغْنَمُوا شيئاً من أموال قريش، فذلك بعض ما لهم المَغْصُوبُ وحَقُّهم المَسْلُوبُ : ﴿وَلَمَّا اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

على أن الأمر في ذلك لم يكن مقصوداً على قريش وحدها؛ فلقد كان للمسلمين أعداء في المدينة وأعداء فيما حولها، ولن يَصُدَّ هؤلاء وهؤلاء عن النَّيْلِ من الإسلام إلا الخوف وحده؛ وهذا مرمى قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾^(٢).

«لم تكن هذه السرايا إذن حرباً يراد بها الهجوم؛ إنما كانت مناوشات يراد بها إرهاب العدو، واختبار قوته ومدى استعداده للقتال، فكانت أشبه شيء بتراشق المدفعية البعيدة المدى اليوم،

(١) سورة الشورى آيتا ٤١، ٤٢.

(٢) فقه السيرة بتصرف والآية ٦٠ من سورة الأنفال.

لاختبار قوى التحصينات»^(١)، ولذلك جعل النبي يطلق هذه السرايا واحدة بعد واحدة في فترات متلاحقة.

سرايا السنة الأولى

ففي رمضان من السنة الأولى، أرسل حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المهاجرين، فسار حتى وصل البحر من ناحية «العيص»، فالتقى بأبي جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاثمائة راكب. وكاد الفريقان يقتتلان، لولا أن حجز بينهما مُجَدِّي ابن عمرو سيد جُهينة.

وفي شوال من السنة نفسها، أرسل عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب في ستين راكبًا من المهاجرين، إلى وادي «رايح»؛ فالتقى هناك بمائتين من المشركين على رأسهم أبو سفيان ابن حرب، فترامى الفريقان بالنبل، ولكن لم يقع بينهما قتال. وفي هذه السرية فر من المشركين إلى المسلمين عتبة بن غزوان والمقداد بن الأسود، وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين في المدينة.

وفي ذى القعدة من هذه السنة، خرج سعد بن أبي وقاص في نحو عشرين من المهاجرين، يعترض عيرًا لقريش ففاته العير.

(١) عمدة القائد.

سرايا السنة الثانية

وفى صفر من السنة الثانية، خرج رسول الله ﷺ بنفسه فى جمع من المهاجرين يريد عير قريش، واستخلف على المدينة سعد ابن عباد؛ فسار حتى بلغ «وَدَّان» جهة الأبواء، فوجد العير قد سبقته؛ فحالف بنى ضَمْرَةَ على «أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، ولهم النصر على من رامهم؛ وأن عليهم نُصرة المسلمين إذا دُعوا لذلك». ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة.

ولم يمض على رجوعه إلى المدينة غير قليل، حتى علم أن عيرًا لقريش آية من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش، وألفان وخمسمائة بعير. فخرج إليها فى شهر ربيع الأول فى مائة من المهاجرين، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وسار حتى بلغ «بُواط» جهة يَنْبُع، فوجد العير قد فاتته؛ فرجع ولم يلق كَيْدًا.

وأقام صلى الله عليه وسلم شهر ربيع الآخر وبعض مجادى الأولى، ثم علم أن عيرًا عظيمة لقريش قد فصلت من مكة تريد الشام، على رأسها أبو سفيان ومعه بضعة وعشرون رجلاً، وفيها جماع أموالهم، حتى لقد قيل: إنه ما من قُرَشِي ولا قرشية

إلا وله في هذه العير مال. فخرج إليها رسول الله ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمة ابن عبد الأسود؛ وسار حتى بلغ «العُشيرة» من ناحية ينبع، فوجد العير قد مضت؛ فوادع بنى مُدَلج وحلفاءهم. ثم رجع إلى المدينة يترقب عودة العير.

ولم يكد رسول الله ﷺ يقيم بضع ليال بعد عودته من العشيرة حتى أغار على سرح المدينة كُرْز بن جابر الفهري، فاستاق بعض إبل وأغنام كانت ترعى بناحية «الجماء»، على ثلاثة أميال من المدينة. فلما كاد يبلغ رسول الله ﷺ خبره، حتى أسرع في جمع من أصحابه يطلب اللحاق بكرز، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الأنصاري. وما زال يسير حتى بلغ «سَقَوَان» من ناحية بدر، ولكن فاته كرز فلم يدركه. ويسمى الرواة هذه الغزوة بغزوة «بدر» الأولى.

ويعلق بعض المؤرخين على حادثة كرز بأنه من حلفاء قريش، وأن قريشًا أرادت أن ترهب المسلمين كما يرهبونها، وأن تكيل لهم كيلا بكيل. سواء أصح ذلك أم لم يصح، فإن أمثال هذه الغارات مما كان يجب على المسلمين أن يُعدوا له عُدتهم ليتقوه.

حرب أعصاب

وقد اصطلح الرواة على أن الكتيبة التي لا يكون فيها رسول الله ﷺ تسمى «سرية»، والتي يكون هو فيها تسمى «غزوة، أو غزاة» وإن لم يكن قد وقع فيها قتال. ومهما يكن من أمر هذه التسمية فإن الغزو لم يكن قط من أغراض هذه السرايا؛ فقد كان العدد الذى يخرج فى كل مرة قليلا لا يمكن أن يصلح لقتال هجومى، إنما كانت كلها كتائب استطلاع وكشف لحركات العدو، وكانت فى الوقت نفسه مناقشات يراد بها إرهاب أعداء الإسلام من قريش وغير قريش، وإشعار الجميع بأن المسلمين قوة تستطيع أن تناوئى من يناوئهم، وأن تدافع من يحاول الاعتداء عليهم.

ويقول الصاغ (أركان الحرب) محمد عبد الفتاح إبراهيم فى تفسير النظرة الفنية لهذه السرايا من الناحية الحربية: «الواقع أن التقدير الصحيح لهذه السرايا هى أنه قُصد بها أساسياً

١ - إعداد قوات تطوف ما بين المدينة ومكة. حتى لا تؤخذ المدينة على غرة.

٢ - العمل على الاقتراب من قريش فى عقر دارها بإغارات صغيرة سريعة، تعمل على خطوط مواصلات قريش إلى

الشام؛ وبذلك يستطيع المسلمون أن يحصلوا من قریش على «السبق فى العمل»، وهو عامل لازم فى الدفاع الهجومى. هذا عدا أن رجال قریش سیرهون جانب المسلمين».

«وقد نجد مثالا لهذه السرايا فى الدوريات الإنجليزية الخفيفة الحركة التى كانت تعمل داخل أراضى برقة، منذ أعلنت إيطاليا الحرب فى العاشر من يونية عام ١٩٤٠. وقد ربح محمد، عليه الصلاة والسلام. من سراياه فى العام الأول للهجرة، ماربجه البريطانيون من الدوريات البعيدة المدى فى عام ١٩٤٠ للميلاد، واستطاع المسلمون أن يُبقوا قریشاً على حذر، فحراس القوافل وقادتها يتوقعون لقاء المسلمين فى كل لحظة.. وهذا الاستعداد الدائم للحرب يثير الأعصاب، وهو أشد إجهاداً من القتال. وكان فى هذا كسب معنوى للمسلمين، وكانت هذه السرايا تعود فى كل مرة بمعلومات قيمة عن نيات قریش وما يعدونه للمستقبل القريب»^(١).

ولقد أدت هذه المناوشات أغراضها كل الأداء؛ فقد أقضت مضاجع قریش، وتركها مفرّعة على أموالها بالليل والنهار، تحاذر المسلمين وتحشاهم على تجارتها فى الذهاب وفى الإياب، حتى لقد

(١) محمد القائد.

جعلت تزيد في حراسة قوافلها منذ استقر المسلمون بالمدينة،
وتسلك بها طرقاً غير مألوفة، وتضرب في متاهات الصحراء
ودروها الوعرة، وفي ذلك مافيه من خسارة ومشقة.

كانت هذه السرايا إذن «حرب أعصاب» من جهة، وكانت
من جهة أخرى نوعاً من «الحصار الاقتصادي»، الذي يلجأ
المتحاربون إليه في الحرب الحديثة؛ كما أنها أثرت إلى ذلك ثمرة
أخرى لها وزنها وقيمتها، وهي مخالفة عدد من القبائل العربية
الضاربة في الصحراء بين مكة والمدينة، وضمان مناصرتها
للمسلمين إذا ما اعتدى عليهم، أو ضمان حيادها - على الأقل
- وعدم انضمامها إلى قريش أو غيرها من أعداء المسلمين.

غلطة تحاول قريش استغلالها

على أن الشرارة التي اشتعلت بها النار بين الفريقين هي
«سرية عبد الله بن جحش»: فقد أرسله رسول الله ﷺ في
رجب ومعه ثمانية من المهاجرين، ليستطلع أخبار قريش؛ فكتب
له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين فإذا نظر فيه
فليَمْضِ لما أمره، ولا يستكره أحداً من أصحابه. فلما سار بهم
يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض
حتى تنزل «لخلة» بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا

من أخبارهم». فقال. «سمعا وطاعة» وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقال لهم: قد نهى رسول الله ﷺ أن أستكره منكم أحداً؛ فمن كان منكم يرغب في الشهادة فلينطلق معي، ومن كره ذلك فليرجع. أما أنا فهاض لأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فضى، ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد. غير أن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، أضلّا بغيرهما الذى كانا يتعاقبان الركوب عليه، فانطلقا يبحثان عنه فتخلفا عن أصحابهما؛ ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزلوا بنخلة. وهنالك صادفوا عيراً لقريش مقبلة من الطائف، تحمل زيباً وجلوداً وتجارة من تجارة قريش، ومعها أربعة نفر: عبد الله بن الحضرمي، وعثمان بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم ابن كيسان. وكان ذلك في آخر يوم في شهر رجب؛ فتشاور عبد الله وأصحابه في أمر العير، فقال بعضهم لبعض: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام. فترددوا وهابوا أن يقدموا عليهم؛ وما زالوا بين الإحجام والإقدام حتى شجع بعضهم بعضاً، فهجموا على العير، فقتلوا من حراسها عبد الله ابن الحضرمي، واستأسر لهما اثنان، وفر الرابع فلم يدركوه.. وأقبل عبد الله وأصحابه بالعير والأسيرين إلى المدينة؛ فلما قدموا

على رسول الله ﷺ وعلم بما كان من أمرهم غضب وقال :
« ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ! ووقف العير والأسيرين ،
وأبى أن يأخذ منها شيئاً ؛ فسُقِطَ في أيديهم ، وظنوا أنهم قد
هلكوا ، وجعل إخوانهم المسلمون يعنفونهم على ما صنعوا .

أما قريش فقد وجدت لها فرصة سافعة لإثارة العزب على
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ فذهبت تُشيع في الناس أن
محمدًا وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام ، فسفكوا فيه الدماء ،
وأخذوا الأموال ، وأسروا الرجال . واستفزع الناس هذا الحادث
حتى جعلوا يتساءلون مستنكرين : أَيْكون في الشهر الحرام قتال ؟
ويكون ذلك من محمد ، وهو الذي يزعم أنه يتبع طاعة الله
ويدعو إلى دينه ؟ وأخذ المسلمون في مكة يهول هذه الشائعة ،
فجعلوا يدافعون عن أصحابهم بأنهم إنما أصابوا ما أصابوا في
شعبان لافي رجب . وثُمِتَ بالمسلمين أعداؤهم ، وفرح اليهود
وتفاءلوا بأن الحرب واقعة لا محالة بين المسلمين وقريش ، بل
بينهم وبين العرب جميعاً ، جزاء ما انتهكوا من حرمة الشهر
الحرام . وتخرج الموقف ، وأشكل الأمر ، وكثر القيل والقال .

القرآن يدافع عن المؤمنين

حين ذلك جاءت نجدة السماء ، فنزل الوحي على رسول الله .

يقول الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيمَتُهُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

نعم. إن القتال في الشهر الحرام كبيرة، ولكن ما فعل المشركون أكبر إثمًا وأعظم جرمًا؛ فقد كفروا بدين الحق، وصدوا عن سبيل الله، وانتهكوا حرمة البلد الأمين، فأذوا المسلمين بكل أنواع الأذى، وصبوا عليهم ألوان العذاب، حتى فتن من المؤمنين من فتن، ومات من مات، وفرّ بدينه من فرّ، وأخرجوهم من ديارهم ظلماً بغير حق، وحالوا بينهم وبين المسجد الحرام وهم أهله وأولياؤه. ثم هم هؤلاء يطاردونهم أينما ذهبوا، ويؤلبون عليهم الأعداء، ويشيرون عليهم الفتن، ولا يزالون يَسْعَوْنَ جاهدين في الكيد لهم حتى يقضوا عليهم أو يردوهم من بعد إيمانهم كفارًا.. فأى جرم أكبر من فتنة المرء عن دينه، وهو قوام روحه وحياة نفسه؟ وأى خسارة أعظم من

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧.

أن يرجع إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهدى، وإلى الظلمات بعد النور؟

لقد فعلت قريش بالمسلمين الأفاعيل؛ ولكنها تناست كل ما فعلت، ولم تذكر إلا حادثة ابن الحَصْرَمي واستلاب العير، فجعلت تبدئ فيها وتعيد، واتخذتها حجة على رسول الله ﷺ تحاول أن تثير العرب بها على الإسلام وأهله. ولكن الله أفحم حجتها، ورد عن المسلمين كيدها، وجعل هذه الحادثة مفتاحاً من مفاتيح الخير، وسبباً من أسباب النصر والتأييد الذي غمر به المسلمين في واقعة بدر.

قال ابن إسحاق: «فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشُّفْق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعث قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُفديكما حتى يقدّم صاحبانَا - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكما». فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم..»

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه

(١) سورة البقرة الآية ٢١٨.

حين نزل القرآن طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله أنطمع
أن تكون لنا غَزَاةً نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فيهم:
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، فوضعهم من ذلك على
أعظم الرجاء.

(١) سورة البقرة الآية ٢١٨.

غزوة بدر

كان دفاع الله عن المسلمين مشجعاً لهم
على التحدى في مناوأة قريش

كانت حادثة ابن الحضرمي مفتاحاً من مفاتيح الخير، وسبباً من أسباب النصر والتأييد للمسلمين. فقد أرادت قريش أن تستغلها لإثارة العرب جميعاً على الإسلام، وإقامة حرب شعواء على المسلمين، تستأصل بها شأفتهم وتقضى على دينهم. ولكن الله أفحم قريشاً وأبطل حجتها، وبين للناس أن ما فعلته بالمسلمين كان أشنع وأفظع، وأن ما فعله المسلمون من القتل في الشهر الحرام لا يقاس شيئاً إلى ما فعلت قريش؛ فتقطعت بهم الأسباب، وضاعت عليهم الفرصة، وخربت الألسنة التي كانت تذيع السوء عن المسلمين، وانكشف عن المسلمين ما غمرهم من الكرب، وفرح عبد الله وأصحابه بنصر الله لهم، ودفاعه عنهم.

وكان انتصار الله تعالى لفعل عبد الله وأصحابه، وإطعامه إياهم في غفرانه ورحمته، مشجعاً للمسلمين على التحدى في

مناوأة قريش، ومن جرى مجراها في عداوة الإسلام وأهله؛ فأخذت البعوث الخارجة بعد ذلك تتألف من المهاجرين والأنصار، بعد أن كانت تتألف من المهاجرين وحدهم، وأيقن المسلمون أنهم يستقبلون مرحلة جديدة في الكفاح، عليهم أن يستعدوا لها بكل قوتهم؛ وأنه لا جناح عليهم إذا قاتلوا من يحاول فتنهم والصد عن سبيلهم، حتى ولو كان ذلك في الشهر الحرام: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ عَٰتَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَٰتَىٰ عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وحينذاك أدركت قريش أنها مؤاخذة بما تفعل، وأن المسلمين لن يتركوها تصول وتجول بعد الآن، كما كانت تصول وتجول من قبل؛ وشعرت بأن هؤلاء الذين كانوا أذلة مستضعفين بالأمس قد أصبحوا قوة لها خطرها، وعقبة يحسب حسابها في طريق تجارتها إلى الشام؛ فأخذت تعيد النظر في أمرهم، وتطيل التفكير في حماية أموالها من غاراتهم. ويقدر ما كانت قريش تفكر في حماية تجارتها من المسلمين، كان المسلمون يفكرون في قطع الطريق عليها، وفي اغتيال ما يستطيعون من أموالها؛ فقد كانت تجارة قريش هي مصدر أموالها، وكانت أموالها هي مصدر

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤.

طغيانها وقوتها.. كانت هي الأجنحة التي بها تطير، والمخالب التي بها تفتك، فجعل المسلمون هدفهم أن يقصوا هذه الأجنحة، ويقلعوا هذه المخالب؛ فأخذوا يترصدون تجارتها، ويقفون لها بكل سبيل، فلعلها تنكسر شوكتها، فتكف عن طغيانها وعدوانها على المسلمين.

خرج الرسول معجلاً بفريق من أصحابه ليدرك عير قريش قبل أن تفوته

وكانت العير التي خرج لها رسول الله ﷺ في غزوة العُشيرة، أعظم عير وأجمعها لأموال قريش، حتى لقد قُوم ما فيها بنحو خمسين ألف دينار؛ فترامت إلى رسول الله أنباؤها بأنها قد فصلت من الشام عائدة إلى مكة، فنذّب لها أصحابه وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله أن يُغنمكموها».

وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على ألا تفوته العير في إيابها، كما فاتته في ذهابها، فاستنهض لها من خف من أصحابه وأمر من كان ظهره^(١) حاضراً أن ينهض، ولم ينتظر من كان ظهره غائباً؛ فأسرع من أسرع، وأبطأ من أبطأ، ظناً أنها العير

(١) الظهر: الركوبة من فرس أو جمل أو نحو ذلك.

وأن رسول الله ﷺ لن يلقى حرباً، كما كان يحدث في كل مرة.
 وخرج رسول الله ﷺ يوم السبت لاثني عشر من رمضان
 (يناير ٦٢٤)، ومعه ثلثمائة.. وبضعة عشر من المهاجرين
 والأنصار وكان قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد
 يَتَحَسَّسَان خبر العير، ولكنه خرج بأصحابه قبل أن يرجعا إليه،
 حرصاً على أن يدرك العير، وحذراً مما عسى أن يصادف رسوله
 من عقبات الطريق.

عرض الجند فرد صغارهم

وسار صلى الله عليه وسلم حتى بلغ «بيوت السُّقْيَا»، وهى
 آبار عذبة الماء على نحو ميل من المدينة، فنزل بها يوم الأحد،
 فضرب عسكره هناك؛ ثم عرض الجند، فرد منهم صغارهم
 الذين لا يَقْوُونَ على حمل السلاح؛ فكان ممن ردهم: عبد الله
 ابن عمر، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأَسَيْد
 ابن حُضَيْر بن سِمَاك، وزيد بن الأرقم، وزيد بن ثابت.
 وعرض عُمَيْر بن أبى وقاص فاستصغره، فبكى عمير، فأجازه
 وسيره مع الجيش.

روى الواقدي عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: رأيت
 أخى عمير بن أبى وقاص - قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ

يتواري، فقلت : مالك يا أخى ؟ قال : إني أخاف أن يراني رسول الله ويستصغرنى فيردنى، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقنى الشهادة ! (قال) : فعرض على رسول الله فاستصغره، فقال له : « ارجع » فبكى عمير، فأجازه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. (قال) : فكان سعد يقول : كنت أعقد له حمائل سيفه.. فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة.

كانوا يتبادلون الركوب لقلّة ما معهم من الركائب

وخرج رسول الله ﷺ من بيوت السّقيّا في نحو خمسة وثلاثين مقاتل، فيهم نحو سبعين من المهاجرين، ونحو مائتين وأربعين من الأنصار. ولم يكن معهم من الخيل غير فرسين اثنين، ولا من الركاب سوى سبعين بعيراً؛ فكانوا يتبادلون الركوب عليها، كلّ اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً؛ فكان رسول الله وعلى بن أبى طالب ومُرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيراً، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنّسة - مَوْلِيَا رسول الله - يعتقبون بعيراً، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن ابن عوف يعتقبون بعيراً.. وهكذا كان كل جماعة يتعاقبون المشى والركوب على بعيرهم. وكان صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يشارك أصحابه في تعبهم وراحتهم، وإلا أن يأخذ دوره في المشى وفي الركوب كواحد منهم، فكان إذا ما انتهت

نوبته في الركوب نزل، فيقول له رفيقاه: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك. فيقول لهما: «ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما!»

وكان صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة على غير لواء مغقود؛ ولكنه منذ خرج من بيوت السُّقيا وضع رجاله في تشكيل حرى، يلاثم ظروف السير في أرض العدو؛ «فقد يَلْقَوْنَ عدوهم فجأة وهم على غير أهبة للقتال، وقد يأخذهم عدوهم على غرة من الخلف؛ وهم كلما بعدوا عن المدينة، تقدموا في أرض يسيطر عليها المشركون من قريش ومن يشابهونهم في عداوة الإسلام»^(١) ومن أجل هذا أخذ النبي ﷺ في تنظيم رجاله على النحو الذي يأمن به المفاجأة، فجعل على الساقة قيس بن أبي صُصعة، وعلى المقدمة الزبير بن العوام، وأظهر السلاح وعقد ألوية ثلاثة: لواء أبيض يحمله مصعب بن عمير، ورايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع رجل من الأنصار.

ويقول الصاغ (أ.ح) محمد عبد الفتاح إبراهيم في كتابه «محمد القائد»: «ولسنا ندرى كم كان في المقدمة وكم كان في الساقة، حتى يمكن أن نقدر نظرة النبي إلى القوة اللازمة

(١) محمد القائد.

للحراسة، ولكن الذى يعنيننا . . أن النبي قدر مسؤوليته - كقائد - عن ضرورة وقاية قوته، وتأمينها من المفاجأة فى أثناء السير. ولكن لا ريب فى أنهم لم يسيروا فى صفوف متراسة، كالتشكيل الذى كانوا يقاتلون فيه، ولا فى جموع، بسبب طبيعة الأرض الرملية المكشوفة التى كانوا يسيرون فيها منذ تركوا المدينة. ولهذا لا جدال فى أنهم كانوا يسيرون فى تشكيل مفتوح، لسرعة السير من ناحية، ولأمن المفاجأة من ناحية أخرى».

وقدّم رسول الله ﷺ أمامه عَينين له إلى المشركين يأتياه بخبر عدوه - هما بَسْبَس بن عمرو، وعدى بن أبى الزُّغباء - فانتهايا إلى ماء بدر، فوجداه هناك جارتين تستقيان من الماء، وعلمتا من حوار دار بينهما أنهاا تترقبان غير قريش، وأنها تصل إلى بدر غداً أو بعد غد؛ فرجعا إلى رسول الله فأخبراه.

أبو سفيان يستنفر قريشاً لحماية أموالها

أما أبو سفيان فقد وصل إليه النبأ بأن محمداً وأصحابه يترصدون عودته؛ فأرسل على عجل رسولا إلى قريش، ينبئها بما عزم عليه محمد وصحبه، ويستنفرها لحماية أموالها؛ ووصى رسوله أن يتخذ لذلك كل وسيلة تثير القوم، وتستنهض مهمهم للغوث والنجدة. فاتخذ الرسول لذلك كل مظاهر الصارخ الملهوف؛

فجدع^(١) بعيره، وحَوَّلَ رحله، وشق قيصره، ووقف يصرخ يبطن الوادى: «يامعشر قريش، اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها! الغوث الغوث...!» فقالت قريش: أبطن محمد وأصحابه أنها كعير ابن الحضرمى؟ كلا، والله لَيَعْلَمَنَّ غير ذلك... وخرج رجال قريش سراعًا، وأعان قوتهم ضعيفهم، حتى ما منهم رجل إلا خرج أو بعث مكانه رجلاً، وحتى يقول الرواة: إن أمية ابن خلف أراد أن يتخلف عن النفير، فجاءه عقبة بن أبى معيط ومعه كَجَمْرَةٍ وَبَحُورٍ، فوضعها أمامه وهو جالس فى نَدَى القوم، وقال له: «استَجِمِرْ أبَا عُلَى، فإنما أنت من النساء!!» فخلج واستحيا، وقام من قوره فتجهز وسار مع الناس.

أبو سفيان يفلت بالعر

وسار أبو سفيان بالعر يتشمم الأخبار فى طريقه؛ حتى إذا قرب من بدر تقدم العيرَ حَلِزًا حتى ورد الماء، فسأل هناك عن أخبار المسلمين؛ فلم أن راكبين كانا قد نزلا على تل هناك، فأنابا راحلتيهما ساعة حتى استَقَيَا من الماء، ثم رحلا. فذهب أبو سفيان إلى ذلك التل، ونظر فى مناخ الراحلتين، فأخذ شيئًا

(١) الجدع: قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة.

من أبعارهما وفركه في يده، فوجد فيه آثار النوى؛ فعلم أن
الراكبين من المدينة، فقال: «هذه - والله - علائف يثرب،
وهذه عيون محمد قد أقبلت تتحسس أخبارنا!» ورجع مسرعًا إلى
العير، فجعل يضرب وجوهها ويحوّلها عن السير إلى بدر، متجهًا
بها إلى ساحل البحر، تاركًا بدرًا إلى يساره؛ فاستطاع أن ينجو
بأموال قريش.

وادی بدر

وكانت «بدر» موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق
كل عام، وماءً مشهورًا بين مكة والمدينة، ومُحطًا للقوافل الذاهبة
إلى الشام، بينه وبين المدينة نحو ستين ومائة كيلو متر. «وهو
سهل رملي يحدّه من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ومن
الغرب كُتبان رملية، ومن الجنوب منحدر صخري منخفض،
وينساب في واديه جدول ماء يعبره من الشرق إلى الغرب،
ويتقطع هذا الجدول هنا وهناك فيصبح آبارًا كثيرة، فيحيطها
المسافرون بسدود فتصير أحواضًا»^(١).

(١) بودي.

الرسول يعلم بخروج قريش فيستشير أصحابه فيما ينبغي عمله

ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى وصل إلى واد يقال له «ذَفِرَان». وهناك جاءه النبا بأن قريشاً قد خرجت بأجمعها لتحمل عيرها، وجاءه كذلك رسوله اللذان بعثهما من بيوت السقيا، فأخبراه بما علما من أمر العير؛ فجمع رسول الله ﷺ أصحابه، فأخبرهم بما كان من خروج قريش، واستشارهم فيما يجب أن يكون. فكره فريق منهم لقاء قريش وهم على غير أهبة لقتال - وكانوا إنما خرجوا لأجل العير - وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلاً ذكرت لنا القتال فنستعد!» فكره رسول الله لأصحابه أن يجيبوا عن لقاء قريش، وقدّر كل ما هنالك من عواقب؛ فجعل يكرر عليهم قوله: «ما ترون في قتال القوم؟» فيقولون: «لا والله ما لنا بقتال العدو طاقة، ولكننا أردنا العير». عند ذلك تغير وجه رسول الله ﷺ وبدأ عليه الغضب، فأدرك القوم ما هنالك من خطر عليهم إذا هم خالفوا عن رغبة الرسول، وقام فريق منهم يدعوا إلى القتال؛ فقام أبو بكر فقال فأحسن، وقام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أمرك الله به فنحن معك! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾؛ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه! فقال له رسول الله خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أشيروا على أيها الناس».. يريد بذلك الأنصار؛ لأنهم كانوا أكثر القوم عدداً، وكانوا قد عاهدوا رسول الله على أن يمنعوه في ديارهم؛ أما في خارج ديارهم فلم يكن العهد يلزمهم، إلا أن يروا ذلك من أنفسهم. فلما قال ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال سعد بن معاذ: «لعلك تريدنا يا رسول الله،؟ قال: «أجل»». فقال سعد: «إنك عسى أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله لك غيره؛ فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فإننا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك عهودنا على السمع والطاعة، ولعلك يارسول الله تخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم؛ وإن أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاطعن يارسول الله حيث شئت، وصلّ جبل من شئت واقطع جبل من شئت، وسالم من شئت وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت،

(١) برك الغماد: مكان ممن في البعد، قيل إنه باليمن وقيل بغيرها.

وما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبعٌ لأمرك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد! وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر على بركة الله! « فسرَّ لذلك رسول الله ﷺ وانبسط وجهه، وبدا عليه البشر والنشاط، فقال : سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكافي أنظر إلى مصارع القوم! «

رسول الله يكتُم أمره عن الناس

ثم مضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى وصل وادي بدر، فنزل بالعدوة الدنيا منه، وهي الجانب القريب من المدينة. وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على كتمان أمره عن الناس، حتى لا يقف على حقيقتهم أحد، ولا يعرف مقصدهم أحد، فأمر بأن تُقطع الأجراسُ من أعناق الإبل، وجعل كلما نزل منزلاً يتحسس أخبار القوم، ويسأل عنهم في حيلة وحذر.

روى ابن إسحاق وغيره، أن رسول الله ﷺ نزل قريباً من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من

العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم؛ فقال الشيخ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: «أذاك بذاك؟» قال: «نعم». قال الشيخ: «فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا؛ فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي نزل به رسول الله وأصحابه - وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا» - للمكان الذي نزلت فيه قريش - فلما فرغ من خبره قال: «من أنتم؟» فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء» - وأشار بيده نحو العراق - ثم انصرف عنه؛ فجعل الشيخ يقول: «ما من ماء... أمن ماء العراق؟» ثم رجع رسول الله إلى أصحابه.

فلما أمسى، بعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر، فوجدوا سقاة قريش يستقون لهم، فأمسكوا بغلامين منهم، فجاءوا بهما ورسول الله صلى. فجعل القسم يسألونهما: لمن أنتم؟ وهم يرجون أن يكونا من سقاة الحير؛ فقال الغلامان: نحن من سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فظنوا أنها يكذبان، فجعلوا يضربونهما ثم يسألونهما، فيقولان: نحن لقريش. فلما أوجعوهما ضربًا قالوا: نحن لأبي سفيان.

فتركوهما. فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من صلاته قال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ! صدقا والله ، إنهما لقريش ». ثم سألهما عن قريش فقالا : هم - والله - وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « كم القوم ؟ » قالوا : كثير ، قال : « ماعدتهم ؟ » قالوا : لا ندرى . قال : « كم ينحرون كل يوم » قالوا : يوما تسعا ويوما عشرا من الجزر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القوم فيما بين التسعمائة والألف ». ثم قال لهما : « فن فيهم من أشرف قريش ؟ » فجعلا يذكران له من أسماء أشرفها حتى أتيا على كل اسمائهم . فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال لهم : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ! » فلم المسلمون أنها الحرب لا محالة ، وأنه لا بد لهم من لقاء قريش وهى فى أقوى قوة وأعظم استعداد.

الشیطان یجد مدخلا إلى بعض القلوب

وهنا وجد الشيطان مدخلا إلى بعض القلوب ، فجعل يصور للقوم ما هم عليه من ضالة العدد وضعف الأهبة وقلة السلاح ، ويصور قريشاً وقد خرجت على نية الحرب ، وأقبلت فى عددها وعدتها ، واتخذ من خروج أشرف قريش فى طليعة الجيش دليلا يقنع به المؤمنين ، بأن قريشاً قد أعدت نفسها لمعركة

فاصلة. فإذا تكون النتيجة إذا التقى الجيشان : هذا قد خرج على غير أهبة، وهذا قد أخذ للنزال أهبطه وأحكم له استعداداه ؟ لا شك أنها نتيجة معروفة.

وكان المنزل الذي نزل به المسلمون بعيدًا عن الماء؛ وكان بينهم وبين الماء رملة دَهَسَة تسيخ فيها الأقدام، فظمئ المسلمون حتى جُهدوا، وأصابهم حرج شديد حين أعوزهم الماء لكي يستقوا ويتطهروا ويصلوا - ولم يكن قد رُخص لهم في التيمم بعد - وهنا وجد الشيطان مدخلا آخر، فجعل يسوس للمسلمين ويلقى في قلوبهم الغيظ، ويخوفهم أن يُقَطَّع العطش رقابهم ويُذهب قواهم، فيتحكم المشركون فيهم كيف شاءوا.

«والماء في الصحراء مادة الحياة، فضلا على أن يكون أداة النصر. والجيش الذي يَفْقِد الماء في الصحراء، يفقد أعصابه قبل أن يفقد حياته. والنفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق، تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها»^(١).

نجدة الساء

حينذاك جاءت نجدة الساء؛ فأنزل الله المطر، فشرب

(١) في ظلال القرآن.

المسلمون وتطهروا، وملثوا الأسقية وسقوا الركائب، وتلبد الرمل تحت أقدامهم فسهل عليه السير، واستراح المسلمون من الجهد الذى أصابهم، ومن الحرج الذى أقلقهم؛ وأصابتهم غشية من النعاس فانقلبوا نيامًا، فما نهضوا من نومهم إلا وقد تبدل حالهم، فإذا خوفهم قد صار أمنًا، وإذا قلقهم قد غدا طمأنينة، وإذا خوزهم قد أصبح جرأة وثباتًا، وإذا هم شئ آخر غير الذى كانوا.. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(١).

ويقول ابن عباس فى تفسير ذلك: نزل النبی، صلى الله عليه وسلم، حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَعْصَة^(٢). وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغیظ؛ یوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولیاء الله وفیکم رسوله، وقد غلبکم المشرکون على الماء وأنتم تصلون مُجْنِبِينَ! فأمطر الله علیهم مطرًا شدیدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشیطان؛ وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس علیه. والدواب، فساروا إلى القوم.

(١) سورة الأنفال الآية ١١.

(٢) رملة دَعْصَة: تفرس فیها الأقدام.

قريش تنقسم على نفسها في الطريق

أما قريش فقد خرجت على بكرة أبيها، في مظهر يدل على القوة والخيلاء، وينبئ بما اعتزمت من سحق محمد وصحبه، هؤلاء الذين تطاولوا عليهم، وتجرءوا على التصدي لغيرهم، وهم الأعزة الذين لم يذلوا، وأهل الحرم وسدنة البيت، و ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ﴾، وقال لا غالبَ لَكُمْ اليومَ من الناسِ وإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴿؛ فخرجوا معتزين بقوتهم، مُدْلِّينَ بمكانتهم بين العرب، معتقدين أنهم سيضربون الضربة القاصمة التي تقضي على الإسلام وأهله، وكان لسان حالهم يقول كما قال فرعون من قبل في قوم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَأَنْهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ * وَأَنَا لَجَمِيعُ حَافِظُونَ﴾^(١).

ومع أن صوت النذير قد أزعجهم فخرجوا جميعًا، فإن كثيرًا منهم كانوا لا يريدون أن يزدوا على إنقاذ العير؛ فلما أن نجح أبو سفيان بالعير، وبعث إليهم يخبرهم بذلك، رغب كثير منهم في الرجوع. ولكن أبا جهل ركب رأسه، وعز عليه أن يرجعوا فتضعف شوكتهم بين العرب، ويطمع المسلمون فيهم؛ فأخذ يصيح في القوم: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليها ثلاثًا،

(١) سورة الشعراء الآيات ٥٤ - ٥٦.

ففتحوا الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا
القيان، وتسمع العرب بنا وبسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابونا
أبدًا..!». وجعل يحرض الناس على مواصلة السير.

وانقسم القوم فريقين: فريق يرى أن الخروج إنما كان لإنقاذ
العير، وقد نجاها الله، فلا معنى إذن للسير بعد ذلك؛ وفريق
يرى رأى أبي جهل فيدعو إلى مواصلة السير، حتى لا تسخر
العرب منهم. وكان من الفريق الأول بنو عدي وبنو زهرة
فرجعوا؛ أما بقية القوم فقد واصلوا السير تحت ضغط أبي جهل
وشيعته، وإن كان بعضهم لا يزال يسير على غير ما يرى من
الرأى، وما يضمّر من العقيدة؛ إنما يسير تحرجًا ومداراة لسفاهة
السفهاء.. وما زالوا يسرون وينزلون بكل منزل، فينحرون الجزر
ويطعمون الطعام، ويشربون ويغنون ويقصِفون، ويعلنون عن
أنفسهم بكل وسائل الإعلان والدعاية، حتى وصلوا إلى وادي
بدر، فنزلوا بالعدوة القصوى، وهي الجانب الذي يبعد من
المدينة ويتجه نحو مكة.

الإيمان بالحق أقوى أسباب النصر

وهكذا جمع الله الفريقين بوادي بدر: المسلمون بالعدوة
الدنيا عما يلي المدينة، والمشركون بالعدوة القصوى مما يلي مكة؛

أما العير التي من أجلها خرج الفريقان، فقد انحدر بها أبو سفيان إلى ساحل البحر فنجا بها. وكان في هذا كفاية لأن يرجع المسلمون ويرجع المشركون، إذ فات الغرض الذي كان يهدف له كلا الفريقين؛ ولكن الله تدبيراً فوق تدبير البشر، وإرادة تحيط بإرادات الناس، وله الحكمة العليا في كل ما يدبر وما يريد؛ فقد جمع بين الفريقين على غير موعد، ودبر بينهما أسباب اللقاء على قلة المؤمنين وضعف عدتهم، وكثرة المشركين وقوة استعدادهم، ليكون هذا اللقاء العجيب - الذي اجتمعت فيه كل عوامل النصر الظاهرية في جانب المشركين، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في جانب المؤمنين - مُرْقَاناً بين الحق والباطل، وميزاناً يزن به الناس أسباب النصر والهزيمة في حقيقتها لا في ظواهرها... فليست كثرة العدد، ولا ضخامة الاستعداد، ولا قوة الدعاية، هي السبب الحقيقي في النصر.. إنما أسباب النصر في صلاح العقيدة، وقوة الإيمان بها، وطول الصبر عليها، وصدق الجهاد في سبيلها، وإن بلغت القلة المؤمنة ما بلغت من الضعف، وبلغت الكثرة الكافرة ما بلغت من القوة: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١).

(١) سورة القصص آيتا ٦٠٥.

« وقد أراد الله أن تجري المعركة على هذا النحو - وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة - لتكون فرقاً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة، ولتنتصر العقيدة بقوتها على الكثرة فى عتادها، فيتبين للناس أن النصر للعقيدة القوية الصالحة، لا للسلاح ولا للعتاد؛ وأن على أصحاب العقيدة أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة، غير منتظرين حتى تتساوى القوة المادية الظاهرية، لأنهم يملكون قوة أخرى لها ثقلها فى الميزان، هى قوة الحق نفسه؛ وأن هذا ليس كلاماً يقال، إنما هو واقع متحقق للعيان»^(١).

وذلك مرمى قوله تعالى للمؤمنين فى شأن هذه الغزوة :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا
إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *
ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢). وقوله بعد ذلك
للمشركين : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ

(١) فى ظلال القرآن مع بعض التصرف.

(٢) سورة الأنفال الآيات ١٥ - ١٨.

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْكُمْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١) . . وقوله تعالى لرسوله، صلى الله عليه وسلم : ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»^(٢) .

وفي القرآن آيات كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة، التي كثيراً ما يخطئ الناس فهمها، وكثيراً ما تخدعهم الظواهر فينسونها ويغفلون عنها. . فالمسألة في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها، وليست كما يتصورها الناس حين تخدعهم كثرة جنود الباطل وضخامة استعداده، فيعتقدون أن النصر للكثرة وأن الحق للقوة، ويلتبس عليهم الأمر، فينسَوْنَ أن القوة إنما هي للحق وإن قل أنصاره، لأن الله مع الحق دائماً : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

(١) سورة الأنفال الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنفال آيتا ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢١ .

الرسول يقبل مشورة أصحابه

وكان صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بهذه الحقيقة، وأوثقهم إيماناً بنصر الله سبحانه، فبات أصحابه نياماً، وبات هو قائماً يصلى ويدعوه أن يُنجز له ما وعده. وما زال كذلك حتى طلع الفجر، فدعا أصحابه إلى الصلاة فصلّى بهم، وحرصهم على القتال؛ ثم خرج يبادر قريشاً إلى الماء يريد أن يسبقهم إليه؛ حتى إذا وصل أول ماء من مياه بدر نزل به. وكان الحُباب بن المُنذر خبيراً بمياه بدر، فقال: «يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فقال الحُباب: «يا رسول الله، ليس لك هذا بمنزل؛ فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته، فننزله، فنغور ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون». فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لقد أشرت بالرأى». وانهض بأصحابه حتى نزلوا حيث أشار الحُباب، فصاروا بأقرب منزل من القوم، حتى ليس بينهم وبينهم إلا كتيبٌ من الرمل، ثم بنوا الحوض على البئر التى أشار بها الحُباب، وطمسوا كل ما وراءهم من الآبار.

وكما أشار الحباب بن المنذر ببناء الخوض، أشار سعد ابن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشاً يشرف منه على المعركة، ويوجهها، ويأمن غرة العدو. فقال: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعَدُّ عندك ركائبك، ثم نَلْقَى عدونا؟ فإذا أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا؛ وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحققت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حُباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك...» فأثنى عليه رسول الله ﷺ ودعا له بخير. ثم بُنِيَ العريش على تلٍّ مشرف كما أشار سعد، وأُعِدَّتْ عنده أنجب الركائب، ليكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرسول يَصِفُ أصحابه ويحثهم على الإخلاص والصبر

وقام رسول الله ﷺ يسوى الصفوف، ويتفقد الرجال، ويهَيِّئُ أصحابه للقتال، ودفع رايته إلى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ، فتقدم بها إلى موضعها الذي أمره أن يضعها فيه. ثم وقف، صلى الله عليه وسلم، ينظر إلى الصفوف، فاستقبل بها المغرب، وجعل الشمس وراءه؛ وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس.

وخطب رسول الله ﷺ أصحابه، يحثهم على القتال

ويرغبهم في الأجر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد،
 فأني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم
 عنه؛ فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالخير ويحب الصدق، ويعطى
 الخير أهله على منازلهم عنده. وإنكم قد أصبحتم بمنزل من
 منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه؛
 وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجى به
 من الغم، وتذكر به النجاة في الآخرة. فيكم نبي الله يحذرکم
 ويأمرکم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله، عز وجل، على شيء
 من أمرکم يَمَقَّتْكم عليه، فإن الله يقول : ﴿لَمَقَّتْ الله أكبرُ من
 مَقَّتِكم أنفسُکم﴾. وأبْلُوا رِيْکُمْ في هذه المواطن أُمْرًا تستوجبوا
 به الذى وعدکم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله
 صدق، وعقابه شديد؛ وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه
 أَلْجَأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا وإليه المصير. يغفر
 الله لى وللمسلمين ».

هيئة المؤمنين في عزمهم وتصميمهم تفرع أعداءهم
 وأقبلت قريش تنصب إلى الوادى من الكثيب. فلما رأى
 رسول الله ﷺ كثرتهم وقلة أصحابه، توجه إلى الله يستعينه
 عليهم، فقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها

تحاذك وتكذب رسولك.. اللهم فنصرَكَ الذي وعدتني! اللهم
أجِنهم الغداة»^(١).

وأراد المشركون أن يستوثقوا من رجال المسلمين قبل أن
ينزلوهم، فأرسلوا عُمَيْرَ بن وهب الجُمَحِيَّ يحزِر لهم
أعدادهم^(٢) ويتعرف أحوالهم؛ فلما اطلع عمير على المسلمين،
رآهم في منظر يبعث الرعب ويستوجب الحذر!.. قوم قليل
عددهم ولكن صور الموت تتراءى من مناظرهم، قد تراصت
صفوفهم كما يتراص البنيان، وتلاحمت أجسامهم كما يتلاحم
الحديد، وجثوا على الركب مستوفزين^(٣)، يتنمرون تنمر الأسود،
ويتلمظون^(٤) تلمظ الأفاعي، ويدورون بعيون تبعث الموت حيثما
دارت؛ وتتحرك شفاههم بمالا تظهره أصواتهم.. يسودهم
صمت رهيب، وتصميم عجيب، وعزم صارم على الاستماتة في
سبيل العقيدة التي آمنوا بها، وجاهدوا في سبيلها، حتى لكانهم
باعوا لها نفوسهم، فلا يريدون أن يثوبوا بها إلى أهلهم.
فأخذ عمير بهذا المنظر المفزع، ورجع إلى قومه فقال لهم:

(١) يسأل الله أن يهلكهم في هذا الصبح.

(٢) يقدر عددهم على وجه التقريب.

(٣) مستوفزين: متهيئين للوثوب.

(٤) يتلمظون: يحركون السنتهم على شفاههم، وهو من هيئات الاستعداد والتحفز.

«يا معشر قريش، البلياء تحمل المنايا.. نواضح يثرب^(١) تحمل الموت الناقع..! قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم.. والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فرؤا رأيكم..!» فتعاطمت في أعين المشركين هيبة المؤمنين، وأخذ الخلاف يدب بين صفوفهم من جديد، وجعل بعضهم يمشي إلى بعض، رجاء أن ينفضوا قبل أن تنشب المعركة ويحتدم القتال.

وأدرك رسول الله ﷺ بصادق حسه ما بينهم من خلاف، فأراد أن يُعذر إليهم من نفسه؛ فأرسل إليهم عمر بن الخطاب يقول لهم: «ارجعوا؛ فإنه أن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلي من أن تُلوه منى». فقال حكيم بن حزام: «قد عرض - والله - نصفاً فاقبلوه».. ومشي إلى عتبة بن ربيعة فقال له: «يا أبا الوليد، أنت كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك ألا تزال تُذكر منها بخير آخر الدهر؟» قال: «وما ذاك يا أبا خالد؟» قال: «ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك ابن الحضرمي، وما أصاب محمد من تلك العير يبطن نخلة». قال عتبة: «قد فعلت، وأنت على بذلك».

ثم قام عتبة في المشركين يقول: «يا قوم، أطيعوني

(١) النواضح: الإبل التي تحمل الماء.

ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، واعصبوا هذا الأمر برأسي، واجعلوا جُبْنَهَا بى، فإن منهم رجالا قرابتهم قريبة؛ ولئن أصبتموه لا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه أو أخيه، فيورث ذلك منكم شحناء وأضغنائاً، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم، ولا آمَنُ أن تكون الدُّبْرَةُ عليكم^(١)...! وأنتم لا تطلبون إلا دم هذا الرجل والعرير التي أصاب، وأنا أحتمل ذلك وهو على...! يا قوم، إن يَكُ محمد كاذباً يكفيكموه ذُؤْبَانُ العرب، وإن يكن مَلِكاً أَكَلْتُمْ في ملك ابن أخيكم، وإن يكن نبياً كنتم أسعد الناس به...! يا قوم، لا تردوا نصيحتي ولا تسفهوا رأيي!!».

وكان أبو جهل شيطانَ هذه المعركة، فجعل يسفّه رأى عتبة ابن ربيعة، ويصفه بالجبن، ويُشيع في الناس أنه لم يقل ما قال إلا خوفاً على ابنه أبي حذيفة؛ فقد رأى أصحاب محمد أَكَلَةَ جزور^(٢) فخاف على ابنه أن يقتل معهم. وجعل يحرض الناس على الشر ويقول: «لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد...! اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة» وبعث إلى عامر بن الحضرمي الذي قتل أخوه في نخلة،

(١) الدبيرة: المزيعة.

(٢) يعنى أن عددهم قليل.

فجعل يحرضه على أن يطلب ثأر أخيه؛ فقام ابن الحضرمي فجعل يحثو على نفسه التراب ويصيح: «واعمّراه...! واعمّراه...!» فحمى الناس واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأخذوا أهبة الزحف واستعدوا للقتال.

المعركة

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه أحسن تعبئة، وحثهم على الثياب والصبر، وقال لهم: «لا تَحْمَلُوا حَتَّى أَمْرَكُمْ، وَإِنْ اكْتَفَكُمُ الْقَوْمُ فَانْضَحُوهُمْ عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ، وَلَا تَسْلُوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشَوْكُمْ». ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر، وقام سعد بن معاذ واقفاً على باب العريش متقلداً سيفه، ومعه رجال من الأنصار، يحرسون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خوفاً عليه أَنْ يَذْهَبَ الْعَدُوُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَالنَّجَاطِ مَهْيَاةً لَهُ إِنْ احتاج إليها ركبها.

وبدأت قريش الزحف، فاندفع من صفوفها الأسود بن عبد الأسد المخزومي إلى حوض الماء الذي أقامه المسلمون وهو يقول: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن من دونه!» فلتقاه حمزة بن عبد المطلب بضربة من سيفه أطن بها ساقه^(١)، فوقع على الأرض، ثم استمر يزحف حتى وصل إلى

(١) أطن بها: قطعها.

الحوض، فجعل حمزة يتابعه بالسيف حتى قتله في الحوض.
وحمل عتبة بن ربيعة من قول أبي جهل، فاندفع من الصف
بين أخيه شيبة وابنه الوليد يدعون إلى المبارزة، ونادوا:
«يا محمد، أخرج إلينا أكفأنا» فأخرج رسول الله ﷺ، لهم حمزة
ابن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وعلى بن
أبي طالب، فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على
الوليد. فأما حمزة وعلى فلم يلبث كل منهما أن قتل صاحبه، وأما
عبيدة وعتبة فقد اختلفا فيما بينهما ضربتين، فوقع كلاهما على
الأرض، فكرر حمزة وعلى بأسيفهما على عتبة فذُق^(١) عليه وحمل
عبيدة فجاء به إلى رسول الله ﷺ، وقد قطعت ساقه وجعل
نَحْها يسيل؛ فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة، وشره بالشهادة.

وهنا حمى المشركون، وهجموا على صفوف المسلمين هجوم
السيل الجارف، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يكسروا
هجماتهم بالنبل، وهم مرابطون في أماكنهم. فلما أوشك الصفان
أن يتلاحما، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحملوا عليهم، ونادى
قائلا: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل
صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة...!!».

فهجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق،

(١) ذُق: أجهز عليه.

والرغبة في الشهادة، والطمع في ثواب الله؛ وجعلوا أهدافهم
رءوس الكفر، يتصيدونهم وسط الجموع الزاحفة، ثم ينقضون
عليهم كالصواعق، وهم يتصايحون تصايح الأسود: «يامنصور،
أمت أمت!!»

ذكر الجنة يلهب حمية المسلمين

وهبت عليهم رياح الجنة، فهانت عليهم الحياة، ولذت لهم
الشهادة، واستعجلوا الموت في سبيلها.. حتى إن عمير
ابن الحمام ليصبح من فرط سروره: «بَخْ بَخْ!! أفما بينى وبين
أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلنى هؤلاء؟» ثم يرمى من يده
تمرات كان يأكل منها، ويقول: «لئن أنا حييت حتى آكل تمرات
هذه إنها حياة طويلة!!؟» ثم يندفع إلى المعركة اندفاع السهم
وهو يصيح:

«ركضا إلى الله بغير زادٍ

إلا التقى وعملَ المعاد

والصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عُرضة النِّفاد

غيرَ التقى والبر والرشاد»

وحتى إن عوف بن الحارث ليسأل رسول الله ﷺ عما

يُضحك الرب من عبده، فيقول له رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « غَمَسَهُ يَدُهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا... » فيزج درعه فيقذفها، ثم يأخذ سيفه ويخوض في المعركة حاسرًا، لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه !!

جند الله في المعركة

وأمد الله المؤمنين بروح من عنده، فازدادت حماسهم، وارتفعت حرارتهم، وتضاعفت قواهم؛ حتى ليحس الواحد منهم أنه قد صار كفتًا لعشرة من المشركين، وأن يد الله فوق يده، تحرك سيفه فيضرب، وتسدد رميته فيرمى؛ وأنه في حشد من جنود الله الخفية، التي لا يدرك كنهها ولا يعرف مداها.

وتضاءلت في أعين المؤمنين كثرة المشركين، فجعلوا يفترسونهم كما تفترس الذئب الغنم، ويكتسحونهم كما يكتسح السيل الغناء؛ وانعقد فوق المعركة جو رهيب، ملأ قلوب المشركين بالرعب، بقدر ما ملأ قلوب المؤمنين بالقوة والثبات..

الرسول يدعو ربه ويستغيثه

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في عريشه، يتابع المعركة وقلبه متعلق بالله عز وجل؛ تارة ينزل إلى المعركة فينهض لهم، ويقوى القلوب، ويحث على القتال، وتارة يصعد

إلى العرش يدعو ربه ويستغيثه، ويستنجزه وعده له بالنصر، ويقول فيما يقول: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك..! اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض..! اللهم نصرك الذى وعدتني..! اللهم أربِّ قلوبهم، وزلزل أقدامهم!!» فما زال يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فالتزمه أبو بكر فجعل يسوى عليه رداءه، ويقول له إشفاقاً عليه مما به: «يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك».. واستغرق رسول الله في دعائه واستغاثته، حتى خَفَقَ خَفَقَةً من نعاس، ثم أفاق مستبشراً يقول لأبي بكر: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله!! هذا جبريل آخِذٌ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النَّقْعِ»^(١).

ونزل رسول الله ﷺ إلى أصحابه يشد عزائمهم، ويبشرهم بنصر الله، ويقول لهم: «شُدُّوا.. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ.. من قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ، ومن أسر أسيراً فهو له».. فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة، تصدعت لها جموعهم، وانهارت أمامها قواهم.

المشركون ينهزمون

ورأى المشركون ما أصاب سادته، فألقى الرعب في قلوبهم،

(١) النقع: الغبار الذى يتطاير من أثر المعركة.

وأخذوا يُلقون بأثقالهم ويفرون من المعركة، نَجاةً بأنفسهم من الموت؛ فانقض المسلمون عليهم يأسرون ويهزمون ويغنمون. فلما وَضَعَ القوم أيديهم يأسرون، نظر رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فرأى في وجهه الكراهية لما يصنعون، فقال: «لَكأنك يأسعد تكره ما يصنع القوم»؟ قال: «أَجَلٌ - والله - يارسول الله...! كانت أولَ وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحبَّ إلى من استبقاء الرجال».

وهكذا تصدعت جموع الشرك أمام قوة الإيمان، وانجلت المعركة عن سبعين قتيلًا وسبعين أسيرًا من المشركين وغنم المسلمون كل ما خلف المشركون وراءهم من زاد وعتاد. أما الذين فازوا بالشهادة من المؤمنين، فكانوا أربعة عشر شهيدًا.

فهرس

الصفحة

المقدمة	٣
عام الحزن - انتشار الدعوة في قبائل العرب	٥
مرض أبي طالب	٦
مصيبتان عظيمتان	٨
فقد النصير بموت أبي طالب - وفقد الأنيس بموت خديجة	٩
اجترأ قريش على النبي	١١
يضعون السلا عليه وهو يصلى	١٢
ويخنقونه وهو قائم في المسجد	١٣
صمود النبي لإيذاء قريش	١٥
مواقف التحدى - النبي لا يترشح عن موقفه	١٧
قريش تتحدى بطلب المعجزات	١٩
استخدام القوة	٢٤
الرسول يحزن لعناد قريش	٢٥
ربه يخفف عنه ويثبتته	٢٧

الصفحة

الخروج إلى الطائف - يس النبي من قريش	٣٠
فاتجه إلى الطائف	٣١
ثقيف تحرص على دينها	٣٢
أشراف ثقيف تسخر من النبي	٣٣
وتسلط عليه سفهاءها	٣٤
موقف حرج	٣٥
الرسول يستغيث بربه - عداس يكرم النبي ويؤمن به	٣٧
الرسول يرجو الهداية لأعدائه	٣٩
الجن يستمعون القرآن	٤٠
الرسول يعود إلى مكة	٤١
عرض الدعوة على القبائل - أسواق العرب في موسم الحج	٤٤
قريش تستعد لتشويه الدعوة	٤٥
قريش تحذر من سحر محمد	٤٧
القبائل تستجيب لسعى قريش	٤٨
صورة من صور العرض	٥٠
كان الرسول ينشد المتعة والحماية حتى يبلغ رسالة ربه	٥٤
كان تأثير قريش على العرب شديدًا - ولكنه لفت	
أنظارهم إلى الدعوة	٥٥

الصفحة

٥٦	صورة من صور التأثير
٥٩	بيعة الأنصار - اختلاف الطبيعة بين مكة والمدينة
٦٠	سكان مكة عرب وسكان المدينة خليط
٦٢	كان اختلاف العناصر في المدينة سبباً في النزاع
٦٥	كان هذا النزاع سبباً في تهيئة النفوس للإسلام
٦٦	الأنصار يلاقون النبي في موسم الحج
٦٨	صورة من صور الدعوة إلى الإسلام في المدينة
٧١	الدعوة تنتشر في المدينة بعد طول احتباسها
٧٢	الرسول يمهد للهجرة
٧٣	البيعة الكبرى
٧٨	كانت هذه البيعة قرة عين المسلمين
٧٩	وصلمة عنيفة للمشركين
٨١	وحداً فاصلاً بين عهدين
٨٣	المؤامرة الكبرى - قريش تحسّ الخطر في بيعة الأنصار
٨٥	المسلمون يتسللون تباعاً إلى المدينة
٨٦	هجرة أبي سلمة وزوجته
٨٨	هجرة صهيب - ردّ عياش إلى مكة
٩٠	هجرة عمر - الرياح تصفر في دور المهاجرين

الصفحة

الأنصار يؤون المهاجرين	٩١
قريش تأتمر بالرسول	٩٢
الرسول يرسم خطته للخروج من مكة	٩٤
غار ثور- فتیان قريش يرصدون دار النبي	٩٧
لم يكن الفرار أمرًا سهلاً	٩٩
الرسول وصاحبه في الغار	١٠١
الرسول مطمئن إلى رعاية ربه	١٠٢
الهجرة إلى المدينة- بدأ النبي هجرته إلى المدينة حين يشست قريش ...	١٠٤
النبي يلقي على مكة نظرة وداع حارة	١٠٦
الدليل يتحرى مواضع الأمان في الطريق	١٠٧
قريش تفرض مكافأة لمن يأتيها بمحمد	١٠٨
أم معبد	١١١
النبي في قباء	١١٤
المدينة تحتفل بمقدم النبي	١١٦
أول خطبة لرسول الله في المدينة	١١٨
الناقة تسير حتى تبرك في موضع المسجد	١١٩
نزل النبي على أبي أيوب حتى بنى مسجده	١٢٠
الرسول يبعث في طلب أهله	١٢١

الصفحة

- ١٢٣ المجتمع الإسلامي - بدأ في المدينة عهد الأمن والاستقرار
- ١٢٥ الحياة الصالحة كما يريد لها الإسلام
- صلة المسلم بالله أساسها العبودية - الصلاة مظهر الصلة
- ١٢٦ بين العبد وربه
- ١٣٠ مسجد النبي - النبي يبني المسجد على أبسط الأوضاع
- ١٣٣ مساكن النبي
- ١٣٤ الأذان والصلاة
- ١٣٦ صلة المسلم بالمسلم
- ١٣٨ صلة المسلم بغير المسلم
- ١٣٩ كانت المدينة أنسب البيئات
- ١٤٣ حماية العقيدة - كانت رسالة محمد إلى الناس كافة
- ١٤٦ كانت هجرة النبي فراراً بدعوته
- ١٤٨ ظلت قريش تطارد الدعوة في المدينة
- ١٤٩ كان لابد للدعوة من قوة تحميها
- ١٥١ لم تكن قريش وحدها هي العدو - كان اليهود يعادون الدعوة ..
- ١٥٤ كان النبي يتوحد إلى اليهود
- ١٥٧ وكان المنافقون يتظاهرون بالإسلام
- ١٥٩ وكان الأعراب يعادون الدعوة

الصفحة

القتال في الإسلام ليس إلا دفاعًا عن العقيدة	١٦٠
لم يكن القتال وسيلة لإكراه الناس	١٦٢
حرب الأعصاب - برم المهاجرون بحياة المدينة	١٦٦
ضيق المنافقين والكفار بالمهاجرين	١٦٨
مرت بالمسلمين أزمات شديدة	١٧٠
صور من فقر المسلمين بالمدينة	١٧١
كان المهاجرون يقاسون شدة العيش	١٧٥
الرسول يرسل الكتائب في طريق قريش	١٧٦
سرايا السنة الأولى	١٧٨
سرايا السنة الثانية	١٧٩
حرب أعصاب	١٨١
غلظة تحاول قريش استغلالها	١٨٣
القرآن يدافع عن المؤمنين	١٨٥
غزوة بدر - كان دفاع الله عن المسلمين مشجعًا	١٨٩
خرج الرسول معجلًا بفريق من أصحابه	١٩١
عرض الجند فرد صغارهم	١٩٢
كانوا يتبادلون الركوب لقلة الركائب	١٩٣
أبو سفيان مستنفر قريشًا لحماية أموالها	١٩٥

الصفحة

أبو سفيان يفلت بالعير	١٩٦
وادي بدر	١٩٧
الرسول يعلم بخروج قريش	١٩٨
رسول الله يكرم أمره عن الناس	٢٠٠
الشیطان يجد مدخلاً إلى بعض القلوب	٢٠٢
نجدة السماء	٢٠٣
قريش تنقسم على نفسها في الطريق	٢٠٥
الإيمان بالحق أقوى أسباب النصر	٢٠٦
الرسول يقبل مشورة أصحابه	٢١٠
الرسول يصف أصحابه ويحثهم على الإخلاص	٢١١
هيئة المؤمنين في عزمهم وتصميمهم تفزع أعداءهم	٢١٢
المعركة	٢١٦
ذكر الجنة يلهب حمية المسلمين	٢١٨
جند الله في المعركة - الرسول يدعو ربه ويستغيثه	٢١٩
المشركون ينهزمون	٢٢٠

١٩٨٧ / ٣٩٣٦	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٠٦٠-٤	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

